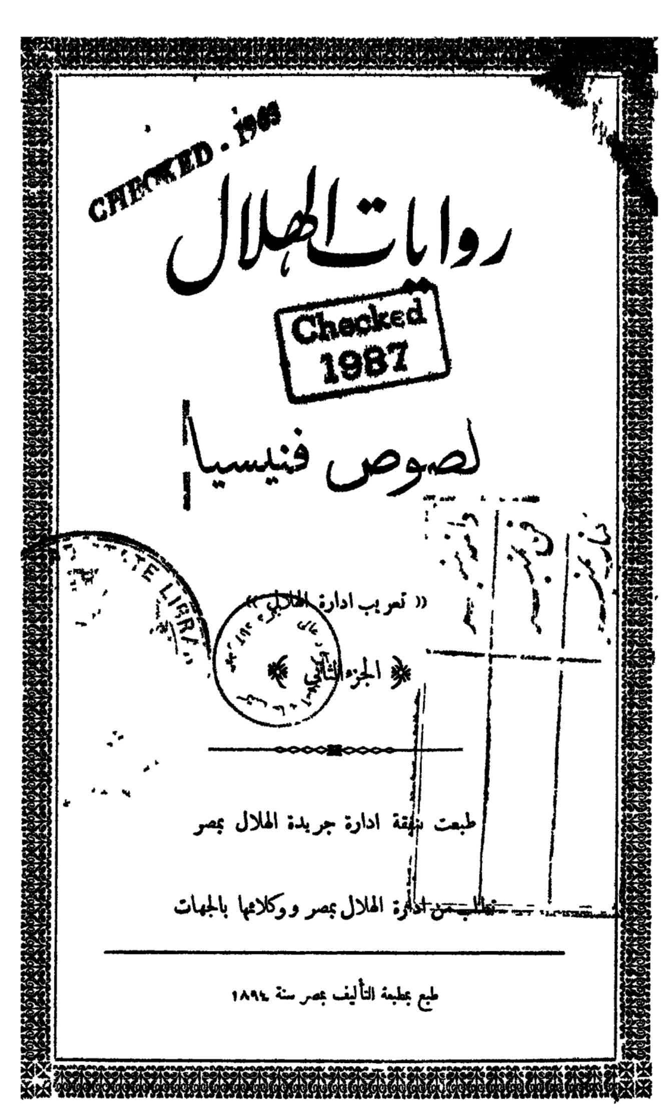


روايات الهلال

لصوص فنيسيا

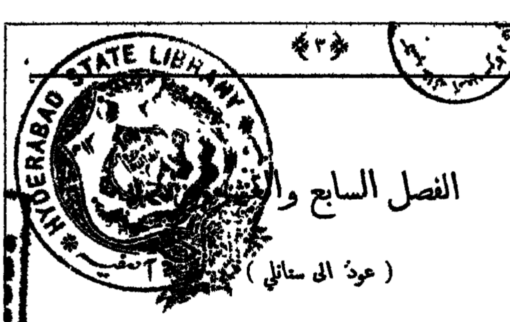
« تعريب ادارة الهلال »

الجزء الثاني

طبعت بنفقة ادارة جريدة الهلال بمصر

تطلب من ادارة الهلال بمصر ووكلائها بالجهات

طبع بمطبعة التأليف بمصر سنة ١٨٩٤



الفصل السابع والعشرون

(عودٌ الى ستانلي)

(تتمة مياوماته) قال - فعرفت من ثمة ان الراتب المقرر لي من نعيم الجائرين يزيد عن حاجاتي وما زلت حتى رأيت الهم ينحلني والوحدة تهزل جسمي وهواء المحبس يحيك في اضعافي ويزيد في انهاك قوتي

ولم يكن لي من سلوى الا بان اجيء بالمائدة الى قربٍ من النور النافذ من خلال ثقب الباب وهنالك اكل طعامي غير ان الشهية من علامات الصحة فاذا انحرفت هذه هربت تلك وذلك ما حدث لي عقيب انحباسي طويلاً ومقاساتي الحرّ الذي لا يطاق صادراً عن وقوع اشعة الشمس على القصدير المتخذ لباساً لسقف المحبس ليزيد الذين فيه عناء وتبّاً بل عذاباً وموتاً بصيرورة السجن كالاتون المحمى

ولما اشتد الحرُّ اصبح جسمي دائم العرق والماء يتقطر منه كالدم حتى اني كنت في كل مساء اخلع ثيابي واعلقها لتجف من بللها وعظم ذلك عليّ حتى احرمني الطعام مدة خمسة ايام لم اذق خلالها الا قليلاً من الخمر في كؤوس الماء فلما مضت تلك الايام نبهني السجان الى امتناعي عن الاكل وشكا من سكوتي عن ذلك مؤكداً لي ان سعادة ولاة الامر كرام الطبع اذ لا يلبثون ان يبعثوا بالاطباء والادواء مجانا ولا يرغبون في موت السجناء

فلم اجب بشيء وانما بعد مضي ثلث ساعات فتح باب حجرتي فدخلها رجل عابس الوجه جليل السمت فجس نبضي وشرع يتفحصني و يسألني مسائل شتى وكنت ساعتئذٍ في حمى شديدة فقلت له اني لا اجد للاجابة من سبيل اذ لا شيء عندي لافصح به للطبيب او لايبوح به للمعرف ما دام السجان حاضرًا فامر الطبيب بذهاب الرجل من الحضرة الا ان السجان ابى ذلك فذهب كلاهما وما عتم ان عاد الطبيب اليّ لوحده فقضينا عشرين دقيقةً في خلوتنا تلوت على مسامعهِ فيها كل حوادثي فاجابني ان عليّ الا يسؤني من الدنيا وقوع المقدور الذي لامرد له ثم نهض فاعدّ لي كأسا من الشراب المرطب الشبيه بعصير الليمون ومضى وفي اليوم الثاني فصدوني واجبروني على تناول الطعام واذنوا لي ان انام في الحجرة الخارجية على انها اقل حرارة من الاولى فابيت ذلك تجنباً لمرافقة الجرذان التى تتردد على تلك الحجرة

ومن غريب الاحوال ان بعد مضي خمسة عشر يوماً عادت اليّ عافيتي وشهية الطعام وسمح لي ان اخرج من حجرتي الى الحجرة الاخرى كل يوم بينما يكون السجان مهتما بكنس غرفتي وتدبير فراشي

ولاخفاء ان هذه النعمة بتمكني مدة خمس دقائق في اليوم من الخروج الى غير محبسي لهي عظيمة لدى الاسير العاني ولكني لا احسبها صادرةً من الجائرين بل ربما جاد بها السجان من تلقاء نفسه متحملاً ما تجرّ في اثرها من التبعات وانما اذن الرجل بها لا ني لم اسألهُ حساباً عن الراتب المسموح لي به اثناء مرضي

وفي خلال هذا الاونة خطر لي ان بقائي في هذه المحبس الهائل

لغير جنايةٍ انما هو ظلم وجور لا يمكن دوامها طويلاً وزاد بي هذه الظن حتى صار متمكنا فيّ وامسيت لا القي جانبي لراحة الرقاد في المساء الا وفي حدسي اني استيقظ عند الصباح مدعواً لدى ولاة الامر ليطلقوا سراحي وكان يزداد اعتقادي بذلك كلما فكرت ان اعتقالي كان من غير حكم قاض ولا رأي مأمور اتخذ من كلامي ذنباً وبالاجمال كنت اجهل السبب الذي لاجله سجنت

ولكن بكرور الايام عاودني الياس فالغضب والحدة اذ صرت اعتقد ببقائي في ذلك السجن الهائل الى الابد وكنت اسخر من نفسي واضحك على غضبي حتى ثابت اليّ افكاري وسكنت ثائرة اهتياجي موطناً نفسي على التماس الحرية والسعي اليها لقعودها عن المجي لي بذاتها وبالتفكر الطويل وادمان النظر صرت كأني معتقد بنيلي امنية نفسي اذا عقدت العزيمة على ذلك النيل فاصبحت منذ حينئذٍ لا افتر هنيهةً من الزمن عن انعام الفكرة في التدبير اللازم للهرب

واني لا تلو على قراء مياومتي تفاصيل المساعي المتخذة لادراك الغاية وانما ارى للاحاطة بالامر ان امهد لهم سبيل التصور ببيان حالة السجن ليدركوا شأني فاقول . ان الحجرة المتخذة لي محبسا واقعة في اعلى سطوح القصر على ان سقوفها ليست من الاجرّ ولا من الخشب بل من الصفائح الحديد والرصاص تبلغ استدارتها نحواً من ثلث اقدام مربعة في ما يناسبها ثخانةً وبسببها تسمت هذه المحابس حديداً ولا يصل اليها الا من على الطريق الخارج عن الممشى الكبير الكائن في قصر الدوج ويليه المرور على جسر التنهدات فقاعة رجال التفتيش الظلمة القساة

ومفتاح هذه القاعة يبقى دائمًا بيد كاتم اسرار الندوة ولكنه يسلم في الاحايين للسجان ايان تدعوه المهمة لزيارة السجين ابتغاء النظر في شؤونه ولا تكون هذه الزيارة الا نهارًا قبل ان تبتدي‌ء اعمال اليوم ويزدحم هنالك رجال الشرطة وامثالهم

ومما يذكر في عرض هذا البيان ان ثلاثا من هاتيك الحجر واسعة قليلاً يستطيع الانسان الوقوف فيها من غير ان يحني رأسه بخلاف الحجرة الرابعة التي كنت فيها فانها ضيقة واطئة السقف . وناهيك بها انها فوق القاعة التي يجتمع فيها الجائرون المعروفون بالثلاثة في جلساتهم الليلية بعد اذ تفض جلسة ندوة العشرة

على اني كنت قد فزت بهذا البيان الوافي عقيب محادثات طويلة مع صديقي فاركاس فعقدت العزم على ثقب ارض حجرتي لاتصل منها الى القاعة المذكورة الا ان ذلك لا ينال الا باستعمال الادوات ومن اين لي نيلها حتى اني لو سعيت اليها بارشاء السجان لخانني بافشاء سري لاولئك الظالمين ومع هذا فاين انا من المال

وعلم الله اني لما خطر هذا المانع لي اوشكت ان اجن من الكدر والقنوط حتى تخيلت مرارًا ان انقض عليه فاقتله فيرى الظلمة ان يقتلوني عوضه فاتخلص من بلائي

واذا كنت كذلك جاءني السجان بنبا مؤداه ان الظلمة قد امروا بوضع سجين اخر في اقبح حبوس الحديد واذ كانت حجرتي اقبح مثيلاتها اصبح الاسير الجديد شريكا لي في شقائي فلما دخلها رأيته فتى قد علق فتاة اعلى منه مقاماً . وانما ذكرت دخوله عليَّ لما كان في ذلك من

التأثير في اجراء مانويت عليه من قتل السجان غير ان الرجل لم يطل المكث معي اذ اخذوه من عندي فخلا لي جوّ التفكر والتدبير

واذ كنت ذات يوم اتمشى كعادتي في الحجرة الخارجية رأيت قطعةً من رخام طولها ستة قراريط في ثخن قيراط واحد فالتقطتها خلسة واخفيتها في جيبي وبعد بضعة ايام رأيت وراء صندوق قديم قطعة من حديد يعلوها الصداء فاخذتها وخبأتها ولما خلوت الى نفسي وجدتها ثقيلةً لا نفع منها لانها مصدأة وغير ذات حدٍ ولكني شحذتها على الرخامة حتى دق حدها وصارت تصلح للحفر بعد ان قضيت في اعدادها تسعة ايام كلها تعب ووصب وملل وضجر حتى ان يميني تألمت جداً فكنت احسبها كأنها خلعت من مفصلها واما اليسرى فكانت قابضةً على الرخامة ولذلك صارت كأنها كتلة واحدة من الدمل ومع ذلك كلهِ سررت بالظفر وخبأت الاداة تحت مقعد كرسيّ ولبثت يومين مرتاحاً من العمل حتى عاودتني همتي ففكرت في التدبير فخطر لي ان انقب الارض من تحت فراشي حتى اتصل منها الى قاعة التفتيش وهنالك اختبيء تحت الطاولة التي فيها وابقى مستترًا الى ان يمر السجان قاصداً زيارة الطابق العلوي فاختلس الفرصة للهرب من القاعة

ثم خطر لي انه لا يخلو الامر من ان السجان يستصحب معه جنديا فيقف في انتظاره بتلك القاعة فلم ارَ وانا بتلك الحال الا ان افتك بهِ ذريعا على ان هذا الراي تبدّى لي مستحسناً وكدت اباشره لولم ارَ ان النقب لا يتأتى عمله في يوم واحدٍ ولا في اسبوع سيما اذا كان السقف مزدوجا او ثلاثي الطبقات فيضطرني الحال الى شغل يستمر بي حوالي الشهرين

ثم اني كنت قد شكوت من البراغيث وطلبت ان تكنس حجرتي كل يوم فلو دام ذلك لحبط مشروعي جملة ولكني رجوت السجان ان يعدل عن الكناسة لان الغبار يضر رئتيّ فاطاعني من غير تذمرٍ غير اني كنت معدًّا له شاناً ذلك اني قعدت عن بدء العمل متردداً وفي اليوم الرابع جاءني بغتةً ببضعة من الخدم وامرهم ان يكنسوا الحجرة ومن ثم رفع الفراش وبدعوى رغبته في مزيد التنظيف استحضر مصباحاً وشرع يستضيءُ به في تفحص الحجرة

فبقيت في اليوم التالي في فراشي وبدأت بسعال شديد متصل حتى اذا جاءني رجوته ان يستقدم الطبيب فلما جاء شكوت اليه من فعل الغبار في وسمع السجان ذلك فاستاء وانقبضت سحنته وصاح بي قائلاً انه انما فعل ذلك حباً بي وجلباً لمنفعتي على اني لو بقيت بعد ذلك عشر سنين لما مس الحجرة بكناسةٍ ولو صارت اوخامها ركاماً فاجبتهُ ان كنسها واجب متى عاد الحرّ

وبعد ذلك صبرت يوماً او يومين من غير ان ابدا بالعمل فلما اردته كان البرد قرًّا وعسر على اصابعي القبض على الحديدة فافتكرت في ان البس القفاز ولكني رايت ان ذلك يوجب في كل يوم عطب ما البسه فيعدو ذلك الى سوء الظن بي وكانت ساعات الليل طويلة والضباب الذي يغشي الجو في الشتاء يزيد الايام عبوسةً ويجعل الليل والنهار في العيون سوداً

فاتخذت من زيت التابل الذي يقدم لي ما استضيء به في غلاف بيضةٍ اما الفتيلة فاصطنعتها من القطن المأخوذ من فراشي ولا اخفي

ان هذه الاختراع المفيد خطر لبالي من قطعة صوان وجدتها في الحجرة الخارجية فجعلتها قداحةً وجعلت احدى قطع الفولاد المتخذة بكلةً لسروالي زندةً فاصبت من ذلك ناراً

واذ تمَّ لي ذلك حسبت الوقت قد حان للابتداء في العمل فانرت مصباحي ورفعت فراشي من موضعه واتخذت شيئاً اعي بهِ ما يستخرج من نتف الاخشاب وباشرت العمل فرايت الخشب غير ذي متانةٍ ولذلك سرني نتاج عملي في مدى الساعات الست التي قضيتها مجدًّا ومن ثم ارجعت الفراش الى مكانه وخبأْت اثار عملي تحت خزانة ثيابي حتى تمكنت ان القي بها بين ركام الاشياء والاوساخ المجتمعة في الحجرة الخارجية وقصارى القول اني اجهدت النفس في العمل مدى احد عشر يوماً حتى خرقت ثلاثة صفوف من الاخشاب ولكنني انتهيت الى رخام مرصوف يسمونه في فينيسيا تيرازيو مارمورين اي السطح المرمري فجربت فيه لاداة فلم تنجع فكان حبوط مسعاي مدعاةً الى الانقباض اجارنا الله من القنوط

على اني ما عتم ان تذكرت ما كنت أَقرأُهُ في المدرسة من ان هنيبال قائد جيوش قرطاجنة لما اراد الزحف على رومية وتسلق بعسكره جبال الالب رأى صخورها وعقابها الهائلة فكان يستعين على تفتتها بالخل يصبه عليها قلت تذكرت ذلك ولكنني لم اعره من نفسي تصديقاً وانما رأَيت الملاط بين قطع الرخام فقلت في نفسي ان الخل اذا لم يكن نافعاً في تفتيت الصخور الصادة فلا اقل من ان يؤثر في الملاط فصببت بين القطع كلما اتصلت اليه يدي من الخل المعد للقابل وصبرت

عليه ثم بذلت الجهد مدى سبع ساعات حتى فزت بتمام النجاح واقتلعت البلاط من مواضعه فرأيت تحته طبقةً من التراب سمكها نحو عشرة قراريط وتحت هذه اخشاب اخرى

فقلت في نفسي هذه هي الاخشاب المكونة سقف قاعة المفتشين

وفي اليوم التالي بينما كنت مستغرقاً في عملي منبطحاً على بطني خالعا كل ثيابي لئلا يظهر عليَّ اثر العمل سمعت صرير الباب الخارجي فاسرعت الى اخراج مصباحي وتركت في الثغرة الاداة واعدت الفراش والشراشف والمخدات الى مواضعها بسرعةٍ اكاد لااستطيع ان انوه بها لاني لااذكر كيف تسنى لي بسط الفراش والنوم فيه ثم فتح بابي ودخل السجان وما عتم ان امر رجلا آخر ان يدخل ففعل وخرج السجان من غير ان يقفل الباب علينا وانما خرج ليأتي بطعام ذلك الرجل وكنت ساعتئذٍ مشغلاً بلبس ثيابي بسرعةٍ ثم ملت صوب الرجل ونظرت اليه على نور المصباح فوجدته من اصدقائي وان هو الا الكاهن براسان رئيس دير في البندقية ولا تسل عن اندهاشه برآي غير ان بقاء هذا الصديق عندي لم يكن الا موقتا لانه لما انقضى النهار اخذوه عني فعاودت العمل في النقب حتى اتممت الثغرة ولم يبق مني • بين لقاعة الاخشبة صفيقة كنت انظر من خلالها الى ما هنالك موطناً النفس على الفرار في تلك الليلة

ولكن عند الظهر جاء السجان وامرني ان الحق به لانهم امروا بنقلي الى محبس اكثر نوراً واحسن حالاً من الاول فبلغ الغضب والفزق مني مبلغاً قريباً الى الجنون ولم ادر كيف سرت الى الحجرة الجديدة

فلما دخلتها بتلك الحالة من الغضب رأيتها مليحة المندام وذات نافذة محددة على انها تطل على محلة ليدو فتركني السجان بها ومضى الى حال سبيله وما عتم ان نقل اليّ الكرسي الذي اجلس عليه والآلة اما بقية المتاع فانهم وعدوني باستحضاره على ان امالي بالفرار ذهبت ضياعاً وناهيك بان مسعاي لابد ان يعلم ويزاد علي الخفر وتشدد الحراسة فجلست على الكرسي مستسلمًا لاحكام القدر متوقعا ظهور فعلتي ووقوع نتائجها واذا بالسجان قد جاءني غاضبا يكاد يتميز من الحنق وبدأ يصرخ ويصيح بي آمرًا بتسليم الادوات كلها اي الفاس والازميل والقدوم وسائر الات الحفر وان ابوح له باسم الذي اعطانيها فاجبته انى اذا فعلت شيئاً بادوات فليس لي صلة مع سواه فهو اذًا الذي اعطانيها واذ كان مع السجان جنديٌّ وسمع جوابي ضحك حتى استلقى على ظهره

اما السجان فازداد غضبا وصراخاً وبدأ يضرب برجليه ويديه ورأسه حتى استوفى حق الاقتصاص من نفسه ثم شرع يفتش الحجرة ومتاعي الذي فيها ومع كل اجتهاده ودقة تفتيشه لم يعثر على شيء بل لم يرَ الاداة التي اعانتني على الثغرة لانها كانت مخبأةً تحت مقعد كرسي ولم يهتدِ الباحث اليها بل خرج من الحضرة مزمجرًا غاضباً حالفاً ان لابد من الانتقام

الفصل الثامن والعشرون

(كل يوم له حديثٌ جديد)

تتمة رواية ستانلي عن نفسه قال — وفي اليوم التالي جاءني السجان

بالطعام وان هو الا خمر استحال خلاً وماء آسن وتابل تفه طعمه لمرور الزمن ولحم نتن او كاد وما لبث ان وضعه ووقف من غير ان يكنس الحجرة أو يفتح نوافذها الا ان جندياً جاء معه وفي يده قطعة من حديد طاف بها انحاء الحجرة وشرع يجس بها الارض والجدران سيما تحت فراشي وفي جوانبه وكأني به وبرفاقه قد حسبوني مستخدما الابالس لقضاء الحاجات

وكنت اراقب الجنديّ اثناء طوافه وبحثه فرأيت انه لم يمسس السقف فخطر على بالي ان اعمل فيه لنجاتي غير ان تفاهة الطعام والشراب وشدة الحر وفساد الهواء الناتج من عدم تجدده كل ذلك فعل فيّ واضعفني فشرعت ارجو السجان ان يرحمني ويحسن معاملتي فلم يعبأ بكلامي بل ابى ان يحمل مني شيئاً من الرسائل للسادة الحاكمين ولما اصرّ معاندًا سألته عن المال الذي كان يسرقه مني فكان هذا السؤال سبباً في التغيير اذ جاءني في اليوم الثاني بسلة من الليمون وبزجاجة من الماء النقي وشيء من لحم الطير ومن ثم سألني ماذا اردت بقولي انه هو الذي جاءني بادوات الحفر فاعترفت له بصحة قولي اذ هو الذي استحضر الادوات التي اصطنعت منها مصباحي ساكتاً عن الادات الحديدية حتى اذا اصرّ على استجوابي عنها قلت ان لي كلاما لا ابوح به الا لدى القضاة فدبّ الخوف الى قلب الرجل حتى اشفقت ان اراه مرتعدًا جزعاً فقلت له ان يعطي ما فاض عن نفقاتي الى امرأته فسرّ الرجل وتصادقنا ومن ثم سألته ان يأتيني بكتب اتسلى بمطالعتها فوعدني بكتاب ومضى لوقته يريد احضاره فتخيلت انه يطلبه

من مسجون آخر في جواري وقد صدق ظني ورأيت الكتاب لاتيني العبارة ولذلك لم اقرأ فيه الا شيئاً يسيرًا ولكنني كتبت بضعة اسطرٍ على بياض صفحاته بقلم اتخذته من قطعة خشب وبحبر اصطنعته من فحم مسحوق ومن ثم اعدت الكتاب الى السجان ورجوته ان يجيئني بالجزء الثاني منه فاتاني به في اليوم الثاني مكتوباً بين سطوره هكذا «اني اسيرٌ مثلك على اني راهب بندقي كريم المحتد واسمي بالبي»

وهكذا استمرت المراسلة بيننا والسجان منشرح الصدر لتبادل الكتب وهو لايدري بالمراسلة من ضمنها وانما يريدها لالهو بها عن الفرار وبعد طول المخابرة تبين لي ان الراهب قضى في سجنه اربع سنوات وان امره لايخلو من العدل في قصاصه على ني لابد لي في ما كان من اعترافه وانما تبدّى لي من امره سعة اطلاعه على ما كان من حوادث السجن اذ اخبرني عن مسعاي في الفرار وان السجان اعاد الموضع الى سابق حاله بعد اذ سد الثغرة من غير ان يخبر ولاة الامر بما عملت والا لو بلغهم لقتلوه

وبعد الانتظار الطويل خطر لي ان الوقت قد حان للعمل على اني لم اكن قادرًا عليه بذاتي لان السجان كان كل يوم يتفحص محبسي كما وصفت فاعتمدت ان استرسل الى الراهب واعتمد عليه فكتبت اليه تحريرًا طويلاً كشفت فيه عن خبايا حيلتي الاولى وطلبت اليه مباشرة العمل وانه اذا شاء ابعث اليه بالاداة التي عندي فيتمكن بها من خرق السقف والتوصل الى حجرتي بثقبٍ اخر وقبل ان تكشف الطمة نتصل الى السطح فنرفع احدى صفائح الرصاص ونصبح احرارًا

وما عتم ان جاءني الجواب على ما اكره لانه تباطأ عن العمل فكتبت اليه ثانية استحثهُ واشجعه فعزم ان يشتري نحوًا من خمسين صورةً من صور القديسين ليزين بها جدران حجرتهِ وسقفها اخفاء للثقب تحت احداها ثم بعث اليَّ في جملة الكتب توراةً قديمة من ذوات الحجم الضخم لاخفي بين طياتها الاداة الحديدية وابعث بها اليه فلم تعجبني الحيلة فسكت حيناً اذا به ادعى بابرداء فبعث اليَّ يطالبني بعارية القرو فلم ارَ ان اضع شيئاً ضمنه حذرًا من الظهور ولكنى بعد ايام ذاكرت السجان في اني مديون للرجل بالتفضل عليَّ والاحسان باعارة كتبه ولذلك ارى من الضرورة ان اصطنع له بيدي صحناً من المعكرونة الفاخرة وابعث بها اليه واذ كان السجان قد ارتضى مني ولم يرَ بأساً في اجابة طلبي اتاني بالمعكرونة والجبن ولوازم الطبخ فاصطنعت الطعام واكثرت فيه من السمن الذائب فصارت القصعة كالحديد المحمى حتى عسر على السجان حملها فنصحت له ان يضعها فوق تلك التوراة القديمة ابعاداً لحرارة الطعام عن يديه فارتضى وكانت الحديدة العزيزة على قلبي والجامعة املي بين وريقات الكتاب مستورةً عن عيون حاملها ولاجرم ان السجان رأى الصحن ليكاد يسقط من يديه اذا تراخى فقبض على الكتاب ولم يلتفت الا الى حفظ الطعام الشهي حتى انتهى الى محبس الراهب فوضع الحمل على الخوان

وبعد بضع دقائق عطس الراهب ثلاثاً فسمعت عطاسه وعرفت ان ذلك نباء وصول الاداة الى يده وما عتم بعد ذلك ان بدأَ بالعمل وبذل فيه جهده مدى يومين فتم له فتح ثغرةٍ في السقف سعتها كافية

لوسع جسمه على ان فوهتها مستورة باحدى صور القديسين التي استخدمها زخرفا لمحبسه وقضى بعد ذلك خمسة ايام حتى تمكن من خرق السقف والوصول الى الحجرة التي فوق محبسه وفي ١٦ تشرين اول سمعت منه الاشارة المتفق عليها متى بلغ محبسي ذلك انه ضرب ثلاث ضربات فاجبته بمثلها ومن ثم عاد الى موضعه على ان الباقي عليه انما هو عمل ليلة واحدة فيتم لنا ما اردنا

وكانت ليالي الشتاء تدنو منا بطولها وديجورها وناهيك بان المفتشين الجائرين كانوا يعيدون في كل سنة ثلاثة ايام متتابعة يقضونها في التفرغ عن العمل وانواع المسرات والحبور وحسبت لتلك الايام فاذا هي على قاب قوسين منا وناهيك بها تدعو السجان الى اغتنامها اقتداء بولاة امره فيشرب خلالها من الخمر كثيرًا ويلهوا عن التشديد في الخفارة

ولما حان الوقت وكان الليل قد دجا واحلولك اديمه اعطيت لبالبي الاشارة فجاء محبسي فتعانقنا طويلا وكان معه مقص فاصلحت فيه شعر لحيتي واستعنا بالكرسي فتسلقنا لى الشرفة التي يسار منها الى فوق وكنا قد اتخذنا من الشراشف واللحف وغير ضروب الاثاث الموجود بين ايدينا امراساً متينةً يستطاع لوثوق بها في حمل الانسان ثم تسلقنا الجسور العليا التى تعضد السقف وشرعنا نعمل في الفولاذ به فرأينا العمل شاقا هائلا الا اننا بالمناوبة نجحنا برفع صفيحة كبيرة كانت متصلة برخام القصر ولما ارتفعت الصفيحة اخرجت رأسي من ثغرتها فرأيت الفضاء مستنيرًا بضوء القمر الساطع غير انه كان وتيك الافق

فاعتصمنا بالصبر حتى ينقضي اثانه عند نصف الليل لان في مثل تلك الليلة الجميلة يخرج الناس من منازلهم فيصبح الوقوف على سطح القصر العظيم مطمحا للانظار ولا ينجو المرء عندئذ من الاعتقال سيما لان خيالنا يقع على محلة سان مارك حيث مقام ما سير كراند ورجاله المحافظين ولذلك صبرنا ثلث ساعات ونحن على احرّ من الجمر حتى اذا انقضت استعنا بحبلنا وخرجنا الى السطح نستتر فيه تحت ظلال نتوات القصر البارزة

على ان رفيقي شعر بقرب خوار عزمه وضعف قدرته سيما اذ رأى مثلي ان السطح شاهق وان النوافذ كلها مغلقة بعوارض من حديد بحيث لا يستطاع ربط الحبل اليها فيستحيل النزول من السطح من غير حبل بل لابد لمن اراد النزول ان ينحدر الى الماء ليتجنب عيون الخفراء القائمين على حراسة جوانب القصر

وبينما نحن كذلك جاءت غمامة كثيفة وحجبت نور الكواكب عن العيان فقلت لرفيقي ان له ان يلحق بي او ان يتركني وشأني لاهرب وحدي بنفسي فلم يجبني بشيء بل دبّ وراءي واخذت صفيحة الرصاص واعدتها الى موضعها لئلا يخطر لاحد منا خاطر الرجوع منها ثم صعدت الى اعلى قنن السطح وبقي الراهب واقفاً في مكانه محافظاً على الحبال غير بعيد ليلحق بي وما زلنا نسير متحرزين متمهلين نحو ربع ساعة حتى بلغنا قمة العليا متجهين صوب سان مارك فلما استرحنا قليلا ثم شرعت افحص السطح عساني اجد شيئاً يصح ربط الحبل به على ان النزول الى احدى باحات القصر او الى الترعة

او الى مكان اخر لا يخلو من الخطر ولكننا لم نرَ سبيلاً للنزول الى الخارج لعدم وجود ما نربط به الحبال فاذا بباحة من باحات القصر يسهل انحدارنا اليها وثباً فقلت لرفيقي هيا بنا ننزل الى هذه الباحة لعلنا نتطرق من بابها الى منفذٍ سهل فوثبنا فاحدث وثوبنا صوتاً ارجف قلوبنا لئلا يشعر بنا احد فلبثنا مدة صامتين ثم نهضت وملت ذات اليمين وذات الشمال فاذا هنالك باب مغلق فاتخذت حديدتي اداةً لفتحه فاطاع ودخلنا قاعة فسيحةً مملوءة بالرفوف المنضدة بالكتب والدفاتر وان هي الا سجلات وقائع الحكومة فخرجنا منها الى سلم انتهينا به الى قاعة كتاب الامارة وهنالك اطلّ الراهب من احدى النوافذ فرأى انه يسهل علينا اتخاذ حبالنا للنجاة من المكان ولكن لو فعلنا لبقينا غير خارجين من السجن اذ ربما اتصلنا الى احدى الباحات المتصلة بالقصر او بالكنيسة او عدنا الى نطاق السجن وانما رأيت ان اقتلع باب الغرفة فنخرج منه ولا خفاء ان تلك فعلة غير يسيرة اقتضت اقتلاع بعض الالواح واحداث صوتٍ هائل على اني كنت قد بلغت حد اليأس والقنوط فاصبحت غير مبال بعقبى اعمالي اما الراهب فنظر اليَّ بعينين غائرتين ووجهٍ تولاه اصفرار الوجل كانه كان يتوقع وقوعنا ثانيةً بين ايدي الظالمين فينزلون بنا ويلاً وهواناً ولكن السرعة كانت منجاة المجدين كيف لا واني لما رأيت الثقب كافياً لمرور الانسان دفعت الراهب منه ولحقت به على الاثر والحق انه كان ثقبا ضيقاً تمزقت فيه جلودنا وثيابنا وادمت نتواته ايدينا وارجلنا

ولما خرجنا منه رأينا انفسنا على درج والظلام مابرح ضارباً اطنابه فسررنا

ونزلنا حتى انتهينا الى باب فاجتزناه الى قاعة ينفذ منها الى الدرج الملكي من ضمن باب كبير يحاكي باب المدينة فامعنت فيه النظر واذا به اعظم من ان تعمل به اداتنا او تؤثر به قوتنا او ان يدين لارادتنا فضاعت عندئذٍ حيلتي وعرفت نهاية امري فقلت للراهب

— اي رفيقي ان الظفر موقوف على الحظ والقدر فان جاء الخدم في باكرة النهار ليكنسوا القاعة ويرتبوها فنحن اذا فائزون والا فلا تمضي الساعتان الا وقد عادوا بنا الى محبسنا

ثم جلست على الارض ففغر الراهب فاه وشرع يقذفني بضروب الشتائم لاني حاولت امرًا فائلاً وقد صرنا كلانا في حالة رثة مثخنين بالجراح على اني والشيء بالشيء يذكر كنت منذ خرجت من محبسي قد تأبطت رزمة ثيابي وهربت بلباس النوم فقط فلما بلغت القاعة المذكورة ولم ارَ حيلة في الخروج منها لبست ثيابي وترديت بردائي ووضعت قبعتي على رأسي ثم فتحت نافذة وتطلعت منها

فحدث ان بعض الناظرين راونا فاخبروا البواب ولاموه لانه أقفل الباب على اناس نسيهم بالامس في قاعة الدوج ولم يمض على ذلك عشر دقائق حتى سمعنا قلقلة المفتاح ضمن القفل فارتعدت فرائصنا وللحال نهضت منتصباً ووقفت منتظرًا ما يكون فرأيت من وراء الحديد رجلاً واحدًا متقدماً وهو حاسر الراس وبيده المفتاح على انه سائرٌ على مهل فملت الى الراهب وقلت له ان يصمت ويقف ورائي تابعاً خطواتي ثم خبأت حديدتي في ردن كمي وقبضت على طرفها ووقفت بحيث متى فتح الباب اسرع بالفرار منه ومن ثم رفعت عيني الى السماء وتضرعت اليه

تعالى ان يمن عليّ بالفرج وان يمنع الرجل عن المعارضة لاني عقدت النية على الفرار ولو كان دون ذلك سفك دم المعترض

فلما فتح الباب رايت الرجل قد ادهشه منظري واحتار من امري سيما واني خرجت من الباب من غير ان انطق بكلمة ولحق الراهب بي ومن هنالك اسرعنا في نزول السلم على ان مشينا لم يكن ركضاً ولا كان وئيداً وملت نحو سلم الابطال غير مكترثٍ بقول بالبي الى الكنيسة مع ان بابها عند منتهى الدرج وانما لم احفل بكلام رفيقي لان الكنائس في فينيسيا لا تصون الملتجئين اليها اذ لايلقى المذنب من الحكومة عفوًا ولو تعلق بالمذبح

وكان الراهب يعرف هذا من القوم ولكنه ادعى ان قصده تقديم الصلوة بحمد الله على نجاتنا فقلت له ان يذهب ويصلي عن كلينا فابى الا مرافقتي

فاسرعت به الى شاطىء الترعة ونادينا احد رجال الزوارق ليسير بنا فقال اين تقصدان

— نقصد فوسينا واذا اسرعت بنا اعطيناك دينارًا (في الاصل عملة ذهبية كان اسمها عندهم فيليب)

ثم القيت بنفسي على المقعد وفعل الراهب بالبي كذلك وهو من غير قبعة ولا لباس لائق على انه ملتفٌ بردي

فاسرع الزورق بنا وبعد اذ اجتاز ادارة المكس وبدأ يقطع مياه الترعة الكبرى وصولا الى فوسينا ومنها الى مسترا ملت الى الرجل وقلت

— اترى نبلغ مسترا قبل الساعة الرابعة عشرة وانما سألت ذلك لاني لما فتح الباب علينا سمعت دقات الساعة وكانت الثالثة عشرة

فاجابني صاحب الزورق اني استأجرته الى فوسينا وليس الى مسترا فقلت اني استاجرته الى مسترا واستشهدت الراهب فقال هذا ان ضميره يبكته على النطق بغير الواقع ولذلك فالاجار واقع لفوسينا

— لابأس غير اني ربما كنت قد اكثرت من الخمر حتى ثملت حيث قلت فوسينا وانا اريد مسترا

— وساخذك الى مسترا

فنظرت ورائي ولم ارَ في البحر قارباً يلحق بنا فسررت سيما وان الصباح كان بهيجا والزورق سريعاً وقد ادركت تمام حريتي متخلصاً من حبس فينيسيا الهائل ومن ظلم رجالها الجائرين القساة

ولما بلغنا البر سرنا فيه حتى المساء وكان من حديثنا في ذلك الليل البهيم ما كان مما روي عن بوناتي والاجتماع به على وميض البرق فسبحان من بيده الامر وهو على كل شيء قدير

الفصل التاسع والعشرون

(امير الجزيرة)

وكان المركب الماخر عباب الماء تجاه الشاطيء ينتقل من موضع الى آخر ليسهل على كوزمو وأتباعه القرصان الاشقياء ان يلجأوا اليه متى اعيتهم الحيلة او قضوا من البر لبانتهم على ان في ذلك خطرًا على المركب ولكن اليأس يستجيش الرجال وناهيك به من السفائن التي يديرها

رجال من الحذّاق الاباسل يتأمرهم نخبة من خيار الضباط ولا غرو فالطائفة كلهم من اليونان وقد كان لهم في ذلك الحين مهارة في البحر لا تجارى حتى انهم واقفوا البندقية في كريت وواقعوها طويلاً ولم يخشوا لها بأساً مع انها كانت من ارسخ الدول قدماً وابسطها جناحاً

وما زال المركب المحكي عنه في تقدم وتأخر وذهاب واياب حتى تمت الفعلة الشنعاء في القصر الايطالي وحملت الاميرتان الى السبي فسار بهما القرصان اليه والقيت لكوزمو صاحبه اذمة الرئاسة فيه فنشر القلوع وسار يشق به عباب الماء

فاتجه الشقي صوب موضع يستتر فيه عن العيون لان الجناية التي ارتكبها لا تطاق ولا بد من ان تتجه عليه قوى الدولة بجملتها فلا يقوى على مخادعتها وناهيك بجسارة الوقوف لقتالها

وكأن الدهر قد بسم له فنال منه على فترة من الرزايا هاتيك الامانيّ التي كان يحلم بادراكها فرأى من الحكمة ان يأوى سلبه وسبيه الى احدى الجزر البديعة متخلياً عن اللصوصية واطماعها مكتفياً بما احرز فيها من ملذة النيل اذ ادرك بها ما اراد من الانتقام وما حببت اليه نفسه الامارة بالسوء من احراز الغادة الحسناء واختطافها من بين يدي زوجها الشريف الباسل الكونت فاركاس وناهيك بما نال ايضاً من مزيد النكاية في الدوج عدوه اللدود

كل ذلك كان يحدو به الى صيانة ما ملكت يداه والسكون الى ما سعد به حظه ولكن المنية كانت تطالبه بغير ما اراد لتدرك منه شأنها

وكان الرجل عارفا باحول البلاد والعباد وروح العصر وان الحادث الهائل سينهض بالامة الى طلب الثار فتعلن الحكومة مكافأة الذين يقبضون عليه حيا اوميتاً والذين يدلون على مكانه وان القوم الذين يريد النزول بينهم لهم ارقاء المال وعبدان السائد فلا يلبثون ان يخونوا به

ولكن انكى من ذلك وانكد ان في الصباح رأى القرصان بارجة الحكومة المعقود لواؤها للامير ادريان تحوم حول مركبهم سائرة نحوهُ كالنسر ينقض على فريسته قضاء لواجب الخدمة لا علما بخفايا الامر .

وما عتم ان اشارت البارجة للمركب بالوقوف فابى كوزمو الاذعان وبقي على حاله من الحث على السير فرارًا من وجه البلروفون لانه لم يكن قادرًا على مواقفتها ولهذا نشر كل شراعه للهواء فطار بالمركب على وجه الماء ولكن البارجة كانت له كفوا ولهذا تعادل المركبان في السير مدى النهار ومثل ذلك اجهد النفس طول الليل هذا ليقنص عدو البلاد وذلك لينجو سليماً ولكن ضاقت بوجهه المذاهب حتى ظهر بنفسه ان نجم سعده قد افل

وكانت الاميرتان واترابها مدى ذلك الوقت قائمات في حجرهن اما سليم الشقي الذي تزيا بزي الجارية في حانوت الجوهري فكان حينئذٍ في شكل خادم يوناني على انه احسن الخدمة واجاد حتى لم يكن بين السبي من ظن به سوءًا اما كوزمو فلم يدخل عليهن لانه كان قلقا مضطرب البال مفكرًا بعواقب الامور حتى انه منذ مقتل اليهودي كانت تعروه في الاحايين غيبوبة عن الوجود ينقبض لها صدره كأن ذلك من

ايحاآت النفس الصائرة به الى الزوال او ان الضمير ولو تركمت عليه الا ثام وتزايدت تبقى فيه بقية خيرٍ فينذر صاحبه بالويل والثبور و يونبه على الشر مغالبا فيه طبائع السوء وملكات الخبث والشقاء فان غلب فنعما الرجل انه تاب والله تواب رحيم وان غلب الضمير فويل ام الرجل انه هوى و زاد ضلالاً

وكأن اللص الشقيّ كوزمو كان يشهد من ضميره ذلك العراك الهائل فيغالبه بما فيه من ملكات الشقاء و يناضله ذاك باستحضاره اعماله الا ثيمة لكن اشقاها وابقاها لدى ذاكرة الشقيّ فنظر اليهودي بوجهه الاصفر يرجو استحياءه والا فشلوه يفضح امر الخبيث ولو وعى كوزمو او تعقل لكفاه تصورهذا الهول ولارتد عن التمادي في المعصية ولكن النفس امارة بالسوء وهي التي تميت اعمال الضمير

ولولا الخطر الحاضر واشتداد الازمة ومطاردة البارجة وفيها الامير الخطير أدريان لزاد بالشقي البلبال ولكنه نوى على دفع الشر بما يستطاع لان موافقة الاميرليست بالامر السهل والنتيجة معروفة سلفاً

ولكن كوزمو رأى أن ادريان لا يعرفه الا بغير لباسه وزيه وانما يعرف كل منهما بأس الآخر

ولما جاء الليل الثالث كانت الريح خفيفة فنوى اللص على حركة ينتهي بها الامر لانه حاول الفرار مرارا وما نجحت حيلته

وكان يرى البارجة سائرة عليه وجزر اليونان على مقربة منه واقربها اليه باروس وحاكمها رجل بذل النفس والنفيس حتى فاز باستقلال جزيرته فلقب باميرها وكان شجاعاً باسلا وله قلعة ذات ضخامة ومنعة

تصد الغزاة وترجع بهم خائبين وسمه صونو

وذكر كوزمو انه كان للرجل صديقا حميما غير انه لم يكن ليرضى بمصادقة اللصوص الذين لا مودة لهم ولا تأخذهم عاطفة الولاء على احد ومع ذلك فهو عدو لدود للبنادقة والاتراك على السواء ولهذا نوى كوزمو ان يسعى اليه ويلتجيء الى جزيرته ويسأله الصيانة والحماية فاذا اباها عليه فلا اقل من ان يجد في الجزيرة غاراً يأوى اليه على تعدد مافيها من مقالع الرخام

وعند نصف الليل احتبك الضباب وكثف فاظلمت الارجاء وضاعت البارجة عن النظر غير ن الجو كن يدل على قرب العاصفة فعلم كوزمو انها لا تكاد تنقضي حتى يدنو ادريان منه

فامر للحال باعداد القوارب وملئت جميعها بما حمل المركب من النفائس والاموال والاسرى والسبايا ونزل اليها معظم البحارة ثم انزلت مدافع المركب الى جوفه وعزل من كل سلاحه ونشرقلعاً ملونا غير الاول فتبدل بذلك كله منظر المركب وامر البحارة الباقين فيه ان يتجهوا صوب كانديا (كريت) ثم يعودوا علي مركب آخر للانضمام الى رفاقهم ولما تمت كل هذه الاهبة امر كوزمو فخف الرجال قاصدين البر فبلغوا موضعا امينا نزلوا منه تحت الاكمة المحصنة بقلعة الامير صونو ثم قصدوا القرية فباتوا فيها تلك الليلة وفي باكرة النهار ذهب كوزمو ورجاله الاخصاء والسيدات الى حضرة الامير ليؤدوه واجب الاحترام

وكانت القلعة فسيحة الارجاء منيعة الحصن يذود عنها عدد من الشرفات والمعاقل والحفر المحيقة بها ولها حولها جسور صناعية تحط وترفع

فلما بلغها اللاجئون اليها وجدوا الجسر قد انحط والخفراء واقفين في مواقعهم الجمة

واذ دخلوا الباحة رأوا فيها نحوًا من مائة جندي يوناني بملابسهم البديعة وبعد ذلك دخل كوزمو قاعة الاستقبال فلقي الامير الخطير قائماً بابهة الملوك تحف به البطانة والاتباع فلما صار اليه وقف الامير ترحاباً وكان لابساً ملابس وطنه وفي حزامه غدارة ويطقان وعلى جانبه سيف مدلى ومن ثم قال — ما ذا يريد مني رفيقي القديم كوزمو ساريدس - التمس منك ان تمنحني ملجأً عندك اصون به نفسي من البنادقة اعداءي واطلب تحت رعايتك خدمة لاني عرفت بانك على وشك تجديد الحرب مع الجمهورية

- حسن . ومن هؤلاء السيدات وما ذا يطلبن

- انهن رهائن

فحنى الامير راسه ثم همس لاحد الخدم فسار وعاد باحدى الجواري فاشار اليها فمضت امام الكونتة فاركاس وبيانكا واترابهن وبينهن سليم بزي الخادم كل ذلك واللص محتار لا يملك من نفسه القدرة على الكلام واذا بالامير قد اشار له ان يتناول معه طعام الصباح من الفاكهة والخبز والخمر حتى اذا انتهيا منه شرع الامير يسأل كوزمو بعض المسائل الحربية لانه كان على وشك المسير ببعثة الى قبرس ليهاجم احدى قلاعها ويغال حماتها البنادقة عليها وانباه ان له بين رجالها انصارا يسهلون له فتحها فاذا تمّ له ذلك كان الفوز اشارة لثورة الجزيرة كلها على البنادقة ومن ثم اظهر ارتياحه الى كوزمو ومجيئه اذ

بذلك يسعفه على عمله

فتمتم كوزمو بكلمات لو سمعها الامير لغضب منها ولكنها بقيت في صدر قائلها وهذا لم يسعه الا القبول ثم قال

- ويومئذٍ ارسل الاسيرات الى جزيرة سيرو

- انهن هنا اسلم عاقبة من موضع آخر وحسبك اني ضمين بهن على اني توسمت فيهن المكانة العلياء

- ان احداهن ابنة الدوج والاخرى زوجة الامير ادريان فاركاس التي سرقها مني فصرت منذ يومئذٍ له عدوًّ لدودًا والثالثة عذراء يونانية اسرت منذ بضع سنوات اذ كانت في لباس الغلمان وظلت كذلك في حوزة الكونت ادريان

فاحمر وجه الامير قليلاً من استعظام هذا النبإ ولم يجب عليه بغير الانحناء . اما كوزمو فتمم حديثه قائلاً

- واني احب الكونتة فاركاس ولا بد من اخذها لي امرأة ولو حال ابليس دون نيلها

- نؤَجل البحث في ذلك حتى افتتاح قبرس . اما نحن فسنجتمع هذا المساء والسفر غدًا

وخرج كوزمو من الحضرة متلهب القلب غضباً وانزوى الى جهة من القلعة امر الامير بها له ولرجاله

اما الامير فسار بتدم راسخة الى جهة من القلعة يقال لها عند المشارقة الحرم وهي مقام النساء على انها عند اليونان ايضاً لا يدخلها الا صاحب الامر فيها تلطف باستئذان السيدات في مخاطبتهن على الطعام اوحدهن

ما الخادمات وسليم فعلى موائد اخرى ولديهن على الخدمة بعض الجواري اليونانيات

ولما وقعت عين الامير على بيانكا برقت اسرته اذ ادهشه جمالها الفتان وسلب لبه حسنها وناهيك بعواطفه حين مال منها الى زليخة وما عتم ان جلس ودار الكلام بينه وبين الاميرتين فرأتا منه رجلاً يفوق كوزمو بآداب الحضرة وانس المعاشرة

واتصل به الحديث الى التعريض بحالتهما فحكتا له الواقعة باطرافها وكان كله مسامع لهما حتى اذا انتهتا قال

— فليطمئن بالكما وليرتاح خاطركما اذ لابد لي من ارجاعكما بالسلامة الى فينيسيا ولو اضطررت ان افتديكما بمالي نعم تعودان اليها امالم افز من احداكما بنعمة القبول فتبقى في هذه القلعة دائماً قال ذلك واشار الى بيانكا بطرفه

فلم تجب الاميرتان بشيء بل دلت نظراتهما واطراقهما الى الارض على الحيرة والاضطراب اما الامير فمال الى المائدة الاخرى وقال

— من منكن البنية التي كانت عند الكونت فاركاس متسمية باسم سليم

فاجابت زليخة وقد ادهشها السؤال — ان سليماً او البنت المسماة قد ماتت وانا رايت شلوها بعيني

ولكن ما اتمت الاميرة عبارتها حتى نهضت المظنون بها جارية يونانية وقالت لبيك ايها الامير

فنظرت الاميرتان اليها مندهشتين محتارتين اما صوتو فقال

– تعال ايها الغلام

ان انا الا ابنة لكنني اتخذت زي الغلمان وفاءً لشرفي

وظللت بزي الغلمان حتى اتمت خيانة مولاكِ وصرت من جملة القرصان فته لي واقربي مني لانظر الى وجهك وقولي لي ما ذا تذكرين من حداثتك

– اذكر اني كنت في قلعة شبيهة بهذه وني اقمت فيها حتى حصرها البنادقة واذ كنت على وشك التسليم لبست زي الغلمان وخرجت مسرعة بايعاز والدتي وما عتم ان قبض العدو على كلينا اما الوالدة فقضت نحبها اذ اصابها طلق من الرصاص عن غير عمد فبقيت وحدي

فصاح بها الامير – وما هو اسم امك

– بنلوبا

– اذاً انت ابنتي قال ذلك بصوت متهدج من الحنو غير انه لم يعانقها بل قال

– تعالي معي الى حيث نستطيع ان نتكلم على حدة . اما اللص الجريء مسؤل بفظائع جمة

ومن ثم خرج الاثنان من الحضرة

الفصل الثلاثون

﴿ الصدفة العجيبة ﴾

وسارت البارجة فشقت عباب الماء ماخرة في بوغاز ضيق يفصل بين باروس وانتيباروس ولكنها لما انقشع الضباب لم تجد لمركب القرصان

اثرًا الا بما يشبه جناح الطائر عن بعد بعيد يتراءى حيناً ويخفى اونة حتى اصبح لا عين ولا اثر فلم يبال الامير فاركاس بضياع فريسته بل شرع يطوف البحار تفتيشا عننا حتى مضت اربعة ايام فعقد العزيمة على العودة الى فينيسيا ليرى في الاوامر الرسمية واذا به يرى مركبين قد ظهرا لديه احدهما كان بعيدًا جدا متجهاً صوب الوطن والآخر على قيد اربعة اميال منه وقد برز من وراء احدى الجزائر وهيئته تدل على تهالك ذويه في التماس مقاصدهم العدوانية . اما شكله فشمالي ولا غرو فان سفن الانكليز كانت قد اعتادت خوض هاتيك البحار وبلغت بوارجهم الى اقصى مين المتوسط حتى ان رواة الاخبار كانوا يومئذٍ قد بلغوا حديث اقتناص القرصان مركباً انكليزياً

وراى الكونت فاركس شكل ذيالك المركب الخارج من وراء الجزيرة وعرفه انه انكليزي فقال في نفسه ربما كان القرصان قد اتخذوا الشكل الشمالي ستراً لمقاصدهم العدائية فصوب نحو المركب ادق الملاحظة والمراقبة واتجه بملء قوته صوبه حتى صار على قيد نصف ميل فاطلق مدفعاً ونشر الراية فاجابه المركب بطلق آخر ورفع راية انكليزية تحتها علم آخر موسوم بالصليب المقدس ومازال المركبان يقتربان حتى صارا على قيد اذرع من بعضهما بحيث يستطيعان التكلم فاستدعى الامير ادريان ربان البارجة الانكليزية وطلب اليه المجيء اليه فما عتم ان انحدر من المركب قارب وشرع يجذف نحو البارجة وكان رئيسه لابساً لباساً فاخرًا ولكن على وجهه لثاماً وما وصل جنب البارجة حتى خف الى صعودها وخاطب القوم الذين لاقوه فيها برغبة في الخلوة

بالربان البندقي فاستغرب ادريان ذلك وامتعض له قليلاً على انه سار به الى غرفته واشار اليه بالجلوس فحنى الانكليزي راسه امتثالا وجلس ثم رفع البرقع عن وجهه فبان من تحته محيا روبرت ستانلي يعاوه الاصفرار فاندهش ادريان لمرآه وصاح — اي رفيقي وصديقي كيف تاتى لي ان اراك تائهاً في البحار وما بالك حزين منقبض النفس

- اعرني سمعك لاتلو عليك حديث الهول

فسكت ادريان بعد ان وضع امام ضيفه زجاجة من الخمر المعتقة واصغى بملء مسمعه فقص الصديق عليه حوادث الفظاعة المعهودة حتى انتهى بروايته الى ما كان من اقتناص الاميرتين وسبيهما فثارت نفس ادريان فيه وصاح — يا الهي صن حبيبتي

- بل هي الآن سبية كوزمو اللص ومعها بيانكا حبيبتي وخطيبتي التي لاجلها احتملت هذا العذاب

- فماذا نعمل يا صديقي واين تراهم نازلين لعمري ان ذلك الشقي اللئيم لا يرحم ضعف النساء ولا يشفق على الابرياء

قال ذلك والحزن ملء نفسه والانقباض قابض على صدره حتى ليكاد يخنقه

- صدقت يا صديقي فان الشقي لا يرحم بريا ونحن متى اقتنصناه لا نشفق عليه شقياً والامر المهم ان نعرف مقره وانك لتعلم يا صديقي ان لذة الحياة وبهجتها قد مضا بضياع من كانت لها شارة السرور واست لارغب في الحياة لولم اكن عاقد النية على الانتقام

ثم قص على صديقه انه تسهلت له سبل الخروج من فينيسيا

بمساعدة الشجاع فسار الى جنود وهنالك راى من ابناء وطنه عديداً كبيرا فاستولى على هذا المركب وجهزه بالعدة والرجال وبرز الى البحر يقصد الانتقام من كوز. ومن فينيسيا ايضاً

فاجابه ادريان — غير انك نسيت ايها الصديق ان الظلم والجور اللذين يعتسف بهما بعض ولاة الامر في بلدتنا لايجب ان يخرجا بنا عن طاعة الدوج اميرنا لان له علينا حقاً معروفاً

- صدقت . ولكن عودتي الى فينيسيا تكاد تكون في حكم المستحيل

- ثق ان الله تعالى يمهد لنا سبل النجاح وانا لا نعدم من الحيل والخدع ما تضيع معه حيل اولئك القساة الجائرين والحكمة تقضي علينا بان نتجه بافكارنا واعمالنا صوب اقتناص الباغي

فارتضى الانكليزي بذلك مجاراة لصديقه ووفاء بعهد وداده ولكن في نفسه ان المسألة لا تنقضي بالحسنى وان رجوعه الى البندقية محال

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ البعثة ﴾

واضطر اللص ان يخضع لاوامر صوتو بالرغم عن ارادته فترك زليخة وبيانكا بين يدي الامير كأنهما رهينة نهوضه بالواجب عليه

واخبر الامير بسرّ ما في نفسه عن الاوطان ودعا بكرزمو اليه وانباه ان جور البنادقة في مستعمراتهم قد زاد الحد حتى نهض القبرسية

عليه يدا واحدة وان هؤلاء القوم كانوا متاهبين للثورة صابرين على مضض البلوى حتى ياتيهم المدد من اليونان في البر والبحر وقد حان الوقت للزحف الى النجدة والاحتشاد في شيو حيث تجتمع جماهير الجند اليوناني من كل فج عميق ولذلك صدر امر الامير الى اللص كوزمو بالمسير الى شيو لينضم فيها الى سائر لسفن المجهزة لتكون بعثة معقودا عليها لصوتو نفسه

فخرج كوزمو من الحضرة وفي ثغره ابتسام لا يدل على بغض قلبه المتلهب ساعتئذٍ بعدوان من حال دون مرامه بابعاده عن قضاء وطر انتقامه من النساء وفي نفسه الامارة بالسوء انه سيعمل ما يضر الامير ويحبط مسعاه

فعاد الى مركبه وهنالك لقي سليماً بزي الغلمان كعادته فانبأه هذا ان الاميرتين لقيتا الحفاوة من الامير صوتو فوعدهما بالحماية والصيانة والرجوع الى الاوطان اذا اعطته فينيسيا عنهما فدية . فسرت الفتاتان بذلك كثيرا

فلما سمع كوزمو هذا الكلام صار الضياء بعينيه ظلاما ولم يضبط نفسه من الغضب والنزف وكاني به راى انه احتفر حفرة لسواه فسقط فيها بيده ولم يجد منها مناصاً

وبعد اذ طال الاجتماع بسليم وعلم منه اشياء جمة عقد النية على التظاهر بطاعة الامير صوتو لذي يخرج من الجزيرة بعده بزمن قصير فيعود اللص الى موضعه ويهاجم قلعته ويدهمها ويعيد السبي الى قبضته ولذلك اقلع بمركبه حتى ابتعد عن مرأى الجزيرة ثم وقف الى ان

ادلهم الليل فماد متجها نحو باروس الى ان بلغ ميناءها فنزل بمائة من رجاله واتجه صوب القاعة فوجد ابوابها مفتوحة وليس عليها خفراء فظفر به السرور ودخلها واذا بها خلاء بلقع يدل ذلك على ان الامير صوتو اشد منه تحيلاً واقوى خدعة فشرع يشتم ويسب سرًّا وجهراً ونكص على اعقابه يريد الخروج من حيث اتى فبلغ المركب واقلع به صوب شيو معهد الملتقى فوصل اليها متأخراً لكن ذلك لم يكن مما سئل عنه في الحين

وجمع صوتو قواته وسار بها الى قبرص لاعانة الثائرين ورسى بالسفن في خليج اشار الثوار على النجدة بقصده وكان من الاتفاق ان يرصدوا الادلة لمراقبته وانهم ينزلون العسكر الى البر فيتركون السفن من غير حماية و يزحفون . وكانت قاعدة الجزيرة وحصونها بيد البنادقة ومستاجريهم الدلماسيين فاتجهت اماني الثائرة الى اقتحام المكان وامتلاكه ليهون عليهم بعد ذلك استئصال شأفة العدو من البلاد غير ان القبارسة كانوا عددا قليلاً مع ان منهم الشجاع الباسل واما عامة الشعب فقد كانت الحكومة الجائرة فيهم قد سحقتهم سحقاً حتى لم تبق لهم روحاً تنعشها الحرية لان الجواسيس كانوا في كل حرب يرون الاعمال ويسمعون الكلام و ويل يومئذٍ لمن اتى نكرا او قال هجرا اذ يلقى المنية وليس النكر والهجر المقصود ان ما طابق اسمها المسمى بل ما وصفها رجال الحل والعقد

فصارت نفوس الاهلين من جراء ذلك ارنى الى العصيان واقرب الى الثورة لولا الخوف الراسخ في النفوس ولكن متى رفعت اعلام

النهضة ينضم الى ظلها الوارف الوف من الذين سئموا الحياة لجور اصحابها

فزحفت الجيوش وعدتها ست مئة محارب من المدججين بالعدة الكاملة وساروا مسيرة يوم حتى دخلوا غاباً كثيفاً كان على مقربة من القلعة الحصينة ذات الشرفات والحفرة الهائله الا ان اسوارها كانت واطئة

وكانت حاميتها من نخبة الرجال وفيها العدة والجهاز حتى ليحسبها القوم يومئذ ابية عن طارقيها ولكنها بنظر كماة يومنا لا تلبث زهاء النصف ساعة واعمل القائد الفكرة فلم ير الا الجسارة سبيلاً للفوز والاسراع في العمل لان اربعاً من بوارج الحكومة كانت راسية في الميناء وباقل من لمح البصر تشترك مع الحصن في الدفاع وتشتيت شمل الاعداء الذين بلغوا الغاب غير مشعور بهم لمرورهم في قطر غير مسكون ولذلك لم ير جواسيس البارجة شيئاً ولم ينذروا الحامية بسوء

وتشاور قادة اليونان بالامر فقرَّ رأيهم على تبييت العدو اي مهاجمتهم ليلاً فتألب اليونانيون وكانوا كأنهم كتلة واحدة ثم شرعوا يجمعون الاخشاب لبناء السلالم الضخمة فتم لهم ما ارادوا بعد العناء والجهد وذلك عند نصف الليل ومن ثم اعطيت لهم الاشارة فوقف كل من الكماة في موقفه متحمساً متهيجاً شأن اليونانيين في كل حال

وكان الليل حالكاً وليس ثمة ضوء قمر وانما كان نور الكواكب نيرا اذ يلقي في الاحايين شعاعا ضعيفاً من بين الغيوم المتلبدة والاشجار المتشبكة فسار القوم مستمدين ما شاءت قدرة الانسان حتى بلغوا الحفرة حول القلعة وكأنهم لم يسمع لهم حس ولم يقع فيهم ضرر ولكن ما عتم

ان رأوا بظلام ذلك الليل الحالك ان حراس القلعة متيقظون وان بينهم حراكاً فاسقط الهاجمون بايديهم واحتاروا في امرهم ولكنهم لم يتمهلوا بل القوا الجسور المصطفة فوق الحفرة ومر عليها المتهوّرون وبايديهم السلالم فالصقوها بالاسوار وتسلقواوهم ينادون بهتاف الحرب المعهود عند اليونان فاسرع الخفراء والحامية الى العراك واحتدم القتال ولم يكن القوم يومئذ يدركون فائدة المدافع بتمامها اذ كانوا يحسبونها غير ذات جدوى وانما كان الفعل الذريع للسلاح الابيض من الحسام الى الفؤوس واشباهها

وصدق البنادقة والدلماسيون في القتال واجادوا في الضرب والطعن ولكن اليونان كانوا اشد بسالة واحكم قيادة وفي صدرهم الامير صوتو وكوزمو وقد صاروا الى حيث فسحوا لسائر الكماة مجالاً فدخلوا القلعة وبدا الفتك بالحامية

ولا غرابة في الظفر فان البنادقة كانوا نياماً فنهضوا مذعورين بثياب النوم وشرعو يقاتلون من غير دربة ولا انتظام حتى اختل انتساق حركاتهم فغلبوا اما الذين كانوا من جهة الباب المتجه نحو البلد فظنوا ان النجدة تأتيهم من ذلك الصوب او من البوارج ففتحوا الباب وانزلوا الجسر المعلق فكان بذلك نجاة نحو نصف الحامية الذين لما اعيتهم الحيلة فروا من ذلك الصوب لا يلوون على شيء

وتمّ انتصار اليونان فهتفوا بالبشر والمسرة

اما البوارج فاستيقظ ركبها على صوت اللاجئين اليها واذا لم يعرفوا بقوة العدو الظافر بهم اقلعت السفن بهم نحو اوطانها

وفي الصباح علم القبارسة بما كان من ظفرهم بالعدو فخرجوا

زرافات وشرعوا يظهرون مسراتهم بنهب الحوانيت والمصاغ التي كان لذويها بعض صلة مع المغلوبين

اما الظافرون فاصدروا امرهم للسفن بالظهور من مخابئها والمجيء الى الميناء ونادوا باهل الجزيرة ان يتسلحوا ويتأهبوا لصيانة حكومة منهم تقدر على صد البنادقة الاقوياء عن قصدهم بالشر

وكان الامير صونو يدبر الشؤون وينظم الامور حتى عرفه القاصي والداني انه زعيم الظافرين وعقدوا الخناصر على اختياره اميرًا على قبرس وناهيك به انه اختار للمناصب رجالها وقلد المصالح اربابها واذ ارضى بعضاً اسخط آخرين ذلك شان العاملين بيد الناس

ان نصف الناس اعداء لمن ولي الاحكام هذا ان عدل

وكان اشد الناس عداوة واكثرهم به مكرًا رفيقه كوزمو

كيف لا وانه راى بام عينيه ان السفن دخلت الميناء واصطفت فيها ومن ثمّ برز منها الاميرتين زليخة وبيانكا

ومع ان صونو كان من الاباسل الذين كبرت فيهم نفوسهم فحدثتهم باطباع زائدة وكان من الذين ياخذهم بهرج الحسن وتسطو عليهم دولة الجمال ولذلك دان لمحاسن بيانكا سيما واذ تخيل له امكان تزوجه بها على سمو مكانتها وكونها وحيدة دوج فينيسيا ولم يكن رميم الصورة بل جميلاً وسنه دون الاربعين وفي نفسه عزة الامارة وظن الاقتدار على امتلاك عواطف الحسان ولم يكن الا كريم الاخلاق عف الطباع بحيث لم يرَ من سبيل للالمام بشرف الكونتة فاركاس بل بالعكس كان يحسن معاملتها ومجاملتها وفي نفسه ان يعود بها الى زوجها . اما كوزمو فكان

يرى من نفسه الترفع عنه كثيرًا ولذلك لم يخش له بأساً وانما ارتضى بما حدثته به ابنته عن فعاله فنوى على اعطائها له زوجة

ولما ارسلت الرسل والسعاة لانهاض الاهلين واستجاشهم وانقضى عمل ذلك اليوم اولم لامير صوتو وليمة حفلى دعا اليها كل العظماء والقادة ومن يستطع حضوره من السيدات ولما التئم الحشد كانت زليخة وبيانكا اعلاهن نفساً واحسنهن حسناً لانهما اذ شعرتا بما نالتا من تجلة صوتو لهما رفعتا راسهما جرياً على سابق مقامهما حسبان قرب افتدائهما ولم يكن لهما في الحضرة ما يكدرهما الا وجود كوزمو الذي كان جالساً على مقربة منهما وعيناه تقدحان شرر البغضاء وفي صدره حزازات الكره الشديد ولما انتهت الضيافة وتفرق المدعوون سار الامير صوتو الى غرفه وقد استصحب معه الاميرتين اذ دعاهما لشرب القهوة فاجابتاه الى مراده ابتغاء المزيد من مسرته وما بداءتا بشربها لدى حاميها حتى دخل احد الخدم مستعجلاً وقال ان كوزمو يطلب اذناً بالدخول على الامير فلما سمع صوتو ذلك قطب حاجبيه اشمئزازًا وانقباضاً سيما اذ راى السيدتين انزعجتا من الدخيل ثم كأنه فكر في واجب تطمينهما فبسم وامر الخادم بادخاله

واذا باللص الشقي قد جاء بقدم ثابتة وهيئة الكبر والصلف اللتين انتحلها بعد اذ ارتوى من الخمر اما الامير فخاطبه قائلاً

– الوقت مضى ولم يبق من مجال للعمل في هذا اليوم

– الا المصلحة التي جئت بها لاني انما قدمت هذا المكان امتثالاً لامرك فاعنتك في الحملة حتى اذا فتحت قبرس وانقضى الامر جئت

اطلب السراح لي ولاتباعي الاباسل

- ان قبرس لم تنل حريتها بعد ولذلك فالمهمة لم تنقض لكنك اذا شئت الانكفاء عن العمل فليس لي من سبيل الى القول لك اكثر من امض بسلام

- ذلك ما ابغي واريد وفوق هذا فاني اطلب ان تعاد اليّ السبايا اللاتي ملكتهن

فلما سمعت الاميرتان هذا الكلام قبضتا على ايديهما مذعورتين وصاحتا بما يدل على الرعب . اما الامير فاجاب بملء التؤدة

ان الاميرتين متمتعتان بملء حريتهما لانهما غير مستعبدتين فان رغبتا في الذهاب معك فذلك اليهما

فاجابت بيانكا قائلة — نسأله تعالى ان يقينا غائلة هذا اللئيم واني اذكرك ايها الامير الخطير بان ابي هو دوج فينيسيا فاذا تفضلت بارجاعي اليه سالمة فلك ان تقترح ما شئت من الفداء

فلما قالت ذلك مال صوتو الى اللص وقال

- حسبك يا كوزمو ما قالت الاميرة في جوابها

- استودعك الله ايها الامير الخطير وثق اننا سنتلاقى عما قريب

فصاح صوتو — تمهل فانك تبقى هنا واستاذنكما ايتها الاميرتان فنهضتا ولحقتا باحدى الجواري



الفصل الثاني والثلاثون

﴿ مهنا كل العجب ﴾

ولما خرجت الغادتان من الحضرة اصدر الامير بعض الاوامر الى الخدم بين ما كان كوزموواقفاً على احر من الجمر متوقعاً ما يكون وعلى محياه خبائث الاشارات اذ كان يعلم ان مقاومة الامير متعذرة عليه لما بينهما من اختلاف القوة ولذلك كان يشغل فكرته الوقادة بالشرور والمعاصي استنباطاً لخدعة غريبة يتوصل بها الى غلبة الامير ونوال ما رام منه

واذا بصوتوا يقول — اسمع يا كوزمو واعلم ان الحال قد تبدل من منذ تعرفنا على بعضنا وذلك من مضي عدة سنين حين اذ خلعت عن عنقك نير فينيسيا حيث كنت يومئذٍ من الامراء اولي النسب العالي والمنصب الخطير والاسم النبيل ولم أكن الا حدثا ولا امل لي بان أكون خلفا لابي على امارته لاني اصغر بنيه اما الآن فقد تبدل الحال اذ تراني اميرًا خطيرا واسع الحول شديد القوة وما انت الاَّ زعيم القرصان

- ولكنني جريت على منهاج قومك

- بل ان جماعة من قومي لا يرون ان ينضموا الى لواء واحد في مناوءة عدو الامة بل يتألبون زمرًا و يقصدون العدو العام فياتون باعمال البغي والشر على انها لا تقاس باعمالك ومع ذلك فانهم لا ينالون مني الا تقبيح اعمالهم وتخطئة منهاجهم بالرغم عن كونهم اتخذوا القرصنة حرفة ليخففوا بها عن نفوسهم كربها الشديد وانفعالها من جور البنادقة وغيرهم

من ظالميهم فكيف يقاس هؤلاء الذين احرجهم الجائرون فاخرجوهم الى البغي والعدوان بشقي من مثلك يخون دولته والوطن ويتجه بكل قوته لمناوأة الاهل والاخوان

فنظر كوزمو اليه شذرا واجابه متهما — لا افقه لحديثك معنى فماذا تريد مني

— انك اذ كنت تحارب فيليبس متحدا معنا وسائرًا تحت ظل رايتنا فعلت ذلك وفي مركبك احدى شريفات اليونان وقد اتخذتها في صحبتك بصفة لا اعلم اهي الخدمة ام الرق ام غير ذلك

فأدهش اللص وأسقط في يده ونظر الى وجه مكلمه فرآه مقطباً مزوراً كأن الشر كمين نفسه وحسبك نتمة مقاله

نعم وقد تجاسرت ان تتخذها رفيقة ساعات كدرك فجعلتها حليلة فؤادك حتى يحتله سواها كل ذلك كان منك نحو الاميرة اليونانية وان هي الا ابنتي

ولم يكن اللص ينطق بالجواب حتى دخل الحضرة موكب فيه سليم بلباس العذارى وعلى محياها صفرة وهي بادية الاضطراب الا ان جمالها غير خفي

وجاء وراءها جماعة من العسكر ومعهم كهنة بلباسهم الرسمي فحملق اللص عينيه في ما يرى واخذ يفركها كأنه تخيل الحقيقة مناما ثم مال الى الامير وقال — كأن سموكم احببتم لممازحة

فنهض صوتو وتقدم من اللص بجاش رابط وقال — اتحسبني امزح وشرف البنية ملثوم فوالله ان لم تتزوج بها لهذه الساعة لاجعلن راسك منذ الآن مقطوعا ولا يصبح الصباح الا وجثتك معلقة على سور البلد

ويك اما علمت ان فرارك بهِ من فينيسيا موجب لقصاصك

ثم ارتد الى الوراء واشار بيده فتقدم الكهنة واصطفوا حول مائدة صغيرة وشرعوا يزينوها بالشموع وسائر اللوازم

فدنت البنية ساعتئذٍ من ابيها ووضعت يدها على ذراعهِ وهمست باذنه كلاماً مؤداه

- اعلم يا ابت اني اكره هذا الرجل واحب سواه

- وهل ان الذي تحبينه راغب في زواجك

- لا لانه يحسبني ميتة وان هو الا الكونت فاركاس المشهور

- ومع ذلك فقد هربت من فينيسيا مع هذا الشقي فالمنية ولا الدنيئة قال ذلك وخرج من الحضرة

ولم يكن بين الاعراس ما يماثل هذا العرس لان العريسين كانا يميلان الى مجاملة بعضهما لكنهما لا يرغبان في الزواج على ان الامير كان مصرًّا على رايه لا يرى الرجوع عنه ومع ان فقد ابنته كان شديد الاثر فيه فانه لم يكن يرغب في رجوعها ملثومة العرض او مشوبة بما يمس شرفها ولهذا تمت الزيجة من غير احتفال فكانت حلوة العقد مختصرة وقد اعقبها الكهنة بكتابة صك الزواج مشهوداً فيه من الحضور وموقعاً بعلامات الامير وكوزمو والبنية بديلاً من التوقيع لان الكتابة كانت يومئذٍ من الكماليات التي قلّ من يهتم باحرازها

ثم خرج الحضور وبقي الامير والعروسان فقال الامير اما الآن فلا لوم علي ولا تثريب فيا بنية لقد صرت الآن دوكة مالاسبينا ومقامك في فينيسيا معادل اعظم المقامات بما فيها مكانة الدوج

فقال الصهر الخبيث لكنك نسيت اني هارب من وطني منذ زمن طويل وقد سلبتني الحكومة لقبي وشرفي

– الان الحكومة تعترف باللقب على شريطة تسليم اللص الشقي اليها

وبينما هم يتحدثون كذلك واذا بخادم قد دخل الحضرة وقال جاء الاسطول البندقي

فتبسم كوزمو عند ذلك ابتسام ظافر بنواياه فلم يخفَ ذلك على الامير بل قال للصهر تربص قليلاً وخرج من المكان تاركاً العروسين فيه فبقيا صامتين هنيهة من الزمن ولكن في انقضائها صاحت البنية برجلها

– اعلم يا كوزمو اني غير راضية عما صرنا اليه ولا سعيت للحصول على هذا العقد وانما احكيت لابي ما كان بيننا

– لا عبرة عندي في نسبة الخطاء ومعرفة مصدره لان مثل هذه العقود لا تربط كوزمو

– ولكني امرأتك

ولقد مرّ على القاري من سيرة هذه البنية انها بغضت زليخة بغضا شديداً استعر به قلبها حتى صارت آلة صماء لانفاذ غايات الشقي واذ علمت بمكانه من الخطارة وعلو المنصب تناست احواله وارادت ان تسلم لنصيبها بالارتضاء به اذا قابلها على ذلك بالحب والحفاوة ولكنه جافاها وعقد النية على المزيد من انكاره اذ قال لها جواباً على خطابها الاخير

– ن بابـ سوا ي ي ك زوجه ـ ز دا بلا ال

ان امرًا واحدًا يجعلني ان ارتضي منك واتخذك حليلة وربما ان احبك ايضاً حباً يعادل حب سائر الرجال لنسائهم

— لما هربت بي من فينيسيا ووعدتني بالحب واقسمت على ذلك

— والآن اجدد لك الايمان انما اشترط عليك شروطاً وهي (اولاً) ان ينفصل كونت فاركاس عن زليخة (ثانياً) ان يكون رجوعها الى بعضها في حكم المستحيل (ثالثاً) ان تنفي عنها اسباب السعادة والهناء

ومتى تمت هذه الشروط تكونين لي زوجة بل بما اني واثق بان خلف هذا الدوج سيكون من اصدقائي فانك تصيرين دوقة

وانك لتجد مني طيعة لامرك راغبة في الاخذ بناصرك

قالت ذلك لان بغضاء زليخة كانت من اشد حزازات صدرها فهي الدافعة بها للسعي الى مضرة نظيرتها غير انها ما اوشكت تنتهي من كلماتها حتى دخل ابوها ووراءه جماعة من العسكر

وكانت العمارة البندقية قد ازدادت عدداً ونقوت حولاً وصارت عند الميناء تتوقع ابتسام الفجر لتبدأ بالقتال وناهيك بورود الاخبار على الامير من كل جهات الجزيرة منذرة بالسوء فاوجس خيفة من دنو الليل التالي حتى وهم بانقلاب الحال وسوء المآل

فلما صار الى الحجرة والعروسان في موقفهما المذكور مال الامير الى تباعه وقال

اني لارغب في محادثة كوزمو على انفراد فللحال خرجت الفتاة تاركة اباها وزوجها فالتفت اللص الى حميه وقال

— وماذا تريد مني

– اريد انك قد طلبت الينا الذهاب من بيننا وكنت على وشك اجابتك حتى رايت الظروف حائلة دون المرام فعدلت عن ذلك الى التحفظ عليك وللحال احدقت بالشقي شرذمة من الجند فعزلوه من سلاحه قبل ان يستطيع للمقاومة سبيلاً وقيدوه بالاغلال وساروا به في اثر الامير صوتو اذ انحدر في سلم لولبي ضيق على انه محفور في الصخر الاصم حتى انتهوا الى الأقبية السفلى فوجدوها ذات باب ضخم من خشب السنديان تشده نتوات من الحديد ففتح والقي اللص فيه

فما وعى الا وهو في ظلام حالك ضمن محبس هائل لا تبلغ اليه أشعة النور فارتاع الرجل على هول إقدامه وجسارته ونهض بعد دهشته يتلمس الجدران تفقداً لها فوجد المحبس منقوراً في الصخر وراى السقف قائماً على عامود من ذلك الصخر نفسه فعلم ان الامل بالفرار رابع المستحيلات

وكان الشقي قد عانى مضض الشقاء وخبائث اللصوصية وجسارة التسليم لنصرانه من كل قاتولٍ عتلٍّ زنيم الى غير ذلك من مساوئه الجمة واعماله الشنعاء التي ركب لاجلها اخس المراكب وتهور في سبيلها بافظع الاهوال ولكنها كلها لم تكن اشد تاثيراً في نفسه من ذلك المحبس

كيف لا وان حميه ذيالك الصديق الحميم الذي مرت على صداقته الاعوام وهو يحسبه من اهل نجدته قد لوى عنه حين اذ راى ان ابنته الفتاة الطاهرة الذيل النقية قد عادت اليه مثلومة الشرف ملوثة الاردان بفظائع البغي فجعل زواجه بها قصاصاً لفعله وختم الامر باعتقاله المريع بعد اذ نالت بنيته منه صك زواجها وفيه اعلان شرفها وصحة

نسبتها اليه ونوالها لقب دوكة مالاسبينا على ان صاحب الاسم الشقي زجّ في السجن الهائل ليقضي جوعاناً عطشاناً يطلب النور فلا يجده ويلتمس النجاة فلا يحلم بها لان بناءه يسم هواءه فيكون قاتلاً لنفسه

لاجرم ان الشقي الذي لم يكن يراع من الدم المسفوح ومن الجريمة المرتكبة ومن الفظائع التي تأباها الوحوش الضارية لم تمر به الا لضمة من الدقائق حتى استلقى على ارض المحبس يرتعد جزعاً من خطران هاتيك الافكار على باله وكان موضع ذلك السجن قريباً من البحر وامواجه تتكسر على تلك الجدران غير انه حسدها لحريتها وحسب انه سيجرع كاس المنية صابرًا على مضض هذه البلوى

على انه مع شعوره بهذا الخوف واحتسابه من الميتة الشنعاء وتصوره فعاله الاثيمة لم تأخذه رهبة الخطيئة ولا تصور هول الرزائل فندم على اقترافها ولا جالت الفضائل لدى عينيه فملت اليها نفسه بل ظلت تلك النعارة الخبيثة امارة بالسوء وما برحت تحدثه امنيه امكان النجاة والتمكن من الاعداء والثار منهم ونوال المرغوب من قتل ونهب وسبي واجتراح ما اعتاده من المآثم

وكان بين العداة الذين يذكرهم بالسوء ويبعث لهم بالشتائم والسباب ويتوعدهم بصنوف الاذي وضروب الويل الدجى وابنته بيانكا وزليخة وزوجها فركاس ولامير صوتو وابنته ساليه وكلهم لو صاروا ساعتئذٍ في قبضة يديه لاذاقهم حتوفهم غير آسف ولا مترددٍ عن الجناية مع انه كان في تلك الاونة ملقى في محبس ربما كان له ضريحاً ابدياً لان الحرب كانت وتسكة الاصطلاء بين البنادقة والقبارصة وربما طال امرها

واحتدم شرها وطال مطال من يتفقد الحبس لان كلا القومين لا يهمهم من فيه فيذهب الشقي ادراج الرياح

ولم يكن هذا الخاطر بعيداً عن حسبانه بل جال في باله ولكن الشقاء حال دون خشوع النفس فظلت على ترهاتها تبعث الشتائم والسباب كأنها الغيث الهتون وما زالت على ذلك حتى حدثته بالمنام فاستلم اليه عاقدا نيته على الانتحار بخنجر تركوهُ لهُ سهواً وذلك مالم ينصره غير واحد من الاحباء وعليه القى بنفسه في احدى زوايا الموضع واراد النوم ولكنه اجفل لشيء وقع عليه واحتار فتبينه واذا به نقطة ماء فلم يحفل بها اولا ولكنه لما تكرر سقوطها عليه تنبه لها وحسب ان بعضاً من الابالس اصحابه ارادوا ان ينبه لها على ان نقطة الماء ليست في حد ذاتها امرًا كبيرًا وانما صار لها الشان المذكور لانتظام سقوط النقط واحدة بعد اخرى بدقة تحير الالباب و بعد اذ تخيلها دليلاً على قرب النصرة عاد فظنها عكس ذلك اي انها قطرات ستنهل غيثاً مدرارًا يجعل المقام ماء غامرًا يذهب بحياته الى الآخرة و بئس المصير . وانما حسبها كذلك اذ كان تقطير الماء على السجون من ضروب العذاب المستخدم في القرون الوسطى لمزيد الابلاء في المسجونين . وما عتم ان نهض الشقي وشرع يطوف في اكناف السجن وهو يقول — لا غرابة في ان اجن من هذا فماذا يا ترى يريدون مني واذا بشيء قد ظهر له فوقف واسند ظهره الى الحائط وقبض على خنجره وذلك لان شعاعاً من نور ساطع خرج من باطن العامود وانتشر على مدى السجن من السقف الى الاسفل وكان بدء امره ضيقاً ثم تدرج في الاتساع تدرجاً لا ريب فيه من

انه كان بطيئاً . فظن الخبيث ان تلك احدى طرائق ذلك العصر في قتل الاسارى اذ كانوا ينزلون متى جن الليل و يقضون عليهم خلسة واذ كان باله مشغولا بهذا الخاطر تمثلت لدى ذاكرته حادثة اليهودي فاجفل وازدادت نفسه انقباضاً على ان اشعة النور كانت قد اتسعت وراى اللص من خلالها شبحاً مدججاً بالسلاح في يمناه غدارة محشوة وفي اليسرى مصباح مضيء

ولما اصبح الصباح وقف الامير صوتو برجاله فوق الاسوار يشرفون على البلدة والميناء بما فيها من السفن وخارجها بوارج البنادقة تتقدمها البلروفون و بينها مركب عجيب الشكل والجنس تبينه احد البحارة الواقفين فعرفه انكليزيا وما عتم ان بداءت تلك البوارج تتقدم على مهل

وكانت السعاة قد تواردت بالانباء من انحاء الجزيرة وكلها تسير الا ان الثورة خامدة لان اهل اذ لم يقو الوطنيون على مكافحة للماسيين ومن انضم اليهم من الانصار المستاجرة . ولذلك هب هؤلاء الظافرون الى اكتساح مواضع العداة فاخمدوا انفاسهم بجرء ظهورهم ومن ثم زحفوا يريدون الحاضرة ليغالبوا الثائرين بها و يهبوها على ان القوم معتادون على الفتك والافساد في البلاد ولذلك تهابهم سكان المدينة وخافوا بطشهم سيما اذ رأوا بوارج العدو مقبلة فزادوا رعباً و بعثوا يقولون للامير صوتو انهم عازمون على مخابرة البنادقة في التسليم اليهم فاجابهم الامير انه عازم على المحاربة والثبات في لعامة الى النهاية حتى اذا غاب عليها القى النار فيها فكان هو ورجاله وسائر اتباعه لها وقوداً غير ان قوله هذا لم يكن نافذاً لان رجاله ابوا ان يشاركوه في الهلاك العتيد

بل عالوه برغبتهم في النجاة وذلك ان يخرجوا من القلعة محاربين حتى يفتحوا لهم سبيلاً فيفرون الى الجبال لان السفن قد صارت الى حوزة البنادقة الظافرين

اما الامير صوتو فلم يعبأ بما كان بل نادى بهم قائلاً — ويحكم اني ما برحت صاحب الزعامة فيكم والقابض على السيادة في هذا الموضع فالامر لي وحدي لا ينازعني فيه احد

وللحال دعى باحد الكهنة الحاضرين واستكتبه كتاباً لرئيس الاسطول البندقي يقول فيه · ان الامير صوتو يطالب منكم الهدنة وعنده لهذا العهد الاميرة بيانكا ابنة الدوج العظيم والكونتة فاركاس زوجة الربان المشهور المترأس على البارجة بلروفون وكلا الاميرتين عند صوتو في مقام ضيفين كريمين على ان في حوزة الامير ايضاً شخص كوزمو اللص الشهير وكل تباعه من البحارة القرصان فاذا سمح الامير البندقي بخروج رجال الامير صوتو من القلعة خروجا محفوفاً بالشرف يسلم الضيوف المذكورون لاصحابهم

ولما كتبت الرسالة رفعت راية الهدنة وبعث الامير بقارب يحملها الى زعيم بوارج البنادقة وكان الكونت فاركاس واقفا على الظهر بجانب الربان الملثم واذا بالوفد الحامل الرسالة قد دنا منهما ودفع بها الى الامير فقرأها ادريان واعطاها لروبرت ستانلي فاشار الرجل اليه برأسه وللحال مال ادريان الى جماعته وقال — ابقوا الاسطول متأهبا للقتال على اني اذهب الى البر عساني احقن الدماء

ومن ثم انحدر هو والربان الملثم الى قارب وسارا تحت راية الهدنة

ومعها بعض رجال من الدلماسيين ورسول الامير الى البر وكان الاهلون قد ازموا بيوتهم تجنباً للمداخله وخوفاً من طائلة الثورة فلما دخلوا القلعة لقيهم بعض الكبراء وساروا بهم الى القاعة حيث كان الامير فلما وقعت عينه عليهم نهض للقيام وترحب بهم قائلاً

- اهلاً وسهلاً بالامير الخطير

- انى اتوقع منك الافصاح عما ذكرت قبل ان اعاهدك على السلم

وما قال ذلك حتى دخلت الحضرة الاميرتان فاسرعت زليخة والقت بنفسها بين ذراعيه وهي مبتهجة مسرورة الخاطر اما بيانكا فكانت منقبضة النفس فقالت زليخة

- اي زوجي العزيز ان هذا الامير الخطير احسن الينا فانقذنا من ايدي اللص الشقي

فالتفت فاركاس عند ذلك للامير وصافحه اما الربان الملثم فانه دنا من الاميرة بيانكا وهمس في اذنها قائلاً

عِ لنفسك ايتها السيدة الباذخة الشان فاني اراكِ منقبضة النفس على ان الخبر الذي ساقصه عليك لا بد ان يؤثر فيك فيجلو عنك الغمة ويكون نهوضي بهذه الخدمة عزيزًا لدي مرغوباً ولكن احذري مزيد الحذر لئلا يظهر عليك شيء فيفتضح الامر بل اعلمي اني انا محبك روبرت

وكأن هذا الكلام طلسماً حلّ رموز اكدارها وجلا صداء احزانها فبسمت عن درّ نضيد وانتعشت قواها ورفعت عينيها فتفرست فيه وكفى بمظاهر ذيالك السرور جواباً

اما الاميران فانهما تذاكرا فنعقدا على تسليم القلعة للبنادقة على شريطة ان يخرج اليونان منها غير معارضين وانما ارتضى الامير ادريان بذلك لاعتباره سلامة ابنة الدوج وزليخة معادلاً للجزيرة برمتها

ثم التفت ادريان الى صوتو واسرّ اليه قائلا

ان كثيرين من الذين كان لهم في هذا اليوم شغل قد نجوا من الاعتقال ولكن لامراء الندوة عندنا عيون تنظر وآذان تسمع وايديهم منبسطة في سفك الدماء فشكره الامير صوتو على تفضله وسار به الى سجن اللص وفتح الباب بيده ووراءه ادريان وجنديان مدججان بالسلاح فلما صاروا في المحبس تبينوه فوجدوه خالياً فاحمرت وجنتا الامير من الخجل وصاح بملء صوته — يا للخيانة يا للنذالة ثم التفت الى فاركاس وقال

– صدقني ايها الامير الخطير ان ذلك لم يكن بعلمي لاني اودّ التخلص من الشقي باية وسيلة كانت

– صدقت واني لواثق بكلامك وكأن ذيالك البغي مستخدم ابليس في جملة اعوانه انما يكفيني منه امتلاك مركبه

وبعد اذ فتشوا السجن ولم يجدوا لفرار الشقي من اثر خرجوا الى قاعة القلعة وهنالك اعادوا النظر على العهدة ووقعوا عليها ثم تفرق اليونان الى مواضعهم وعادت القلعة ليد البنادقة الذين لم يعبأوا بمؤدى العهدة ولا اكترثوا بروابط الشرف والذمة بل جعلوا يفتكون بالمسالمين فتكاً ذريعاً كأنهم استبسلوا مذ رأوا لقوم قد سكنوا الى ولايتهم فلم يكسبوا منهم الا توغر الصدور عدواناً عظيما

اما فاركاس فعاد الى اسطوله وامر فاحرقت جميع سفن العدو اليوناني الا مركب كوزمو فانه استاسره وسار به غنيمة حرب

وسارت الركبان بالبشائر الى فينيسيا فهرج الناس سرورا وكبروا ظفر ادريان وعظموا شانه اما الاعيان فلم يقع ذلك منهم موقعا جليلا لحسدهم ورغبتهم بالاستئثار في المجد والعظمة الموروثين غير راضين عما يكتسب منها بالجد فكيف يغضون الطرف عن طرف فخر زاد التلبد واربى عليه تالله ان حسدهم ليدفع بهم الى الامتعاض من ذلك بخلاف عظيمهم الدوج فان استرجاع ابنته سليمة من الاذى زاده رضاء عن ادريان وارتياحا الى اعماله حتى لقبه بالابن العزيز

وراى البنادقة مركب القرصان قادما بين بوارج الدولة وعليه ذل الاسر وهوان الشقاء فسروا لهذا المغنم وابتهجوا جدّا حاسبين ان ذلك آخر العهد بالشقي ولكن ساءَ فالهم وخابت اماني نفوسهم اذ ان اللص ما زال حيا يرزق. وكان حتى يومئذٍ على وشك الظهور بضروب من الشقاء غير ما فصل ليزداد قدمه في الاثم رسوخا اما نجاته من الحبس فبعناية زوجته سليمة اذ انها لما آنست من ابيها الاستيحاش منها لسوء تصرفها مالت الى مرضعتها وهي قديمة عهد الخدمة في بيت ابيها وقد كان لوالدتها في قلبها حب ووداد راسخ واحكت لها انها تزوجت من احد اشراف البنادقة وانه مسجون واشارت الى موضع حبسه فحنت المرأة لسماع حديثها واطلعتها على سر العامود المتوسط مما لم يكن يعلم به امراء قبرس وخدامهم المتصلون بهم فلما سمعت سليمة ذلك عقدت النية على انفاذ رحالها لتنـ ل به ما اراد من الثار فكان ما قررناه في صدر الخبر

الفصل الثالث والثلاثون

﴿ مظهر جديد ﴾

ان حكام البندقية الذين لم يعرفوا للعدل اسما ولا للرافة رسما لو اتصل بهم ان روبرت ستانلي سجينهم المظلوم انه فرمن بين مخالبهم وعاد الى البلدة يتخطر فيها غير مكترث بهم لقاموا وقعدوا ودسوا عليه العيون والارصاد حتى اقتضوه واودوا به لانهم قلّ ان يشفقوا على لذين يبيحون باسرار السجن وناهيك يه قد استخف بالحكومة اذ فرّ من قبضتها مستصحبا معه شقيا آخر لم يحل بينه و بين كاس المنية الا لبسه شارة الكهنوت ومع هذا الخطر المحدق به لم يقعد روبرت عن دخول البلدة بل دخلها مستكنا منزويا حتى لا يشعر به احد قبل ان ينال نعمة العفو من لدن الجائرين ناهيك ان الانزوء عن الناس والاختفاء عن العيون لا يتيسر نولها تماما لا اذا كان المخفي في ذروة العلياء كقصر الدوج ودار الامير فاركاس واتى ينال ذلك ويكون آمنا وهو عارف بمنهاج البندقية من دس العيون في كل مكان فلا يلبث امره ان يعلن ويؤاخذ به من كان له نصيرًا وهنالك الطامة العظمى

واذ باح بهذه التاملات لصديقه وتداولا طويلاً قرّ الراي على ان يبقى روبرت بين الحجارة في بوارج الحكومة حتى يحين الاجل لقضاء الارب

ذلك لان الدوج كان مجدا في اعداد الاهبة لقلب الهيئة الحاكمة والادالة من جائريها بقوم يدينون للعدالة ولا يتخذون القسوة شعارً بل ينهجون في اعمالهم مناهج القسط تاركين لاميرهم حق التمتع بمنصته العليا

غير مستبدين عليه . فذين فيه يفعلون ما توحيه اغراضهم واهوائهم ولا يفعل ما يريد من العدل وسنن الحق بل لا يقتدر على ذلك ولا يقوى على الاجهاد بما يريد ابقاء لرأسه على بدنه وناهيك بان المعدات التي كان الدوج يسعى بها لغرضه ظلت تحت حجب الخفاء محفوفة بالحيطة والحذر لان رقباء حركاته وسكناته كانوا على جانب من التحيل والخداع يستترون به في رصد اعماله فاذا تبيدرا منها ما يلم بالجائرين اوليسوءهم امره لي الدوج من عدوانهم بما لا يطاق ولا تعصمه عن الاذى مكانة منصته العليا

وحدث ان بعض مضي بضعة ايام على نزول الكونتة فاركاس في صرحها وحلول الاميرة بيانكا في قصر ابيها ان فتى غض الشباب مليح الشمائل نزل منزلا وضيعاً اذ استاجر حجرة في الطابق الاعلى من دار حقيرة واقعة في حي منحط الشان من احياء المدينة وكان لباسه رثا لا يظن من ينظره ان صاحبه من الجند وكان الفتى يتظاهر بالانهماك في مطالعته ولكن الامعان فيه يظهر على محياه قطوباً تدل على تشاغل باله بغير ما يقرأ ومع ذلك من عادته ان يستمر على قراءته حتى يسمع ساعة سان مارك تدق بما يماثل نصف الليل فينهض من مجلسه ويتلثم لثاماً عريضاً ثم يتقلد سيفاً ويلبس قبعة حديدة ورداء ثم يخرج من غير ان يطفئ المصباح فينحدر من على السلم الى الفضاء وفي ذات مرة فعل ذلك عند نصف الليل وكان الغيم رقيقاً يتخلله في الاحايين نور خفيل منبعث من القمر ما عدا بعض لحظات حتى انجابت هاتيك الغيوم وظهر البدر مشرقاً فمشى والمتمرن سائر على المدينة وهو ضارب

اطنابه وحس الامواج مطرب ونسيم البحر ينعش الارواح وكل شيء يدل على السكينة لولا ان الاسواق تخلو من السابلة الا بضعة نفر من الخفراء الذين لا يهمهم مرور الغريب بهم سيما وان في هيئته ما يحول دون الايجاس منه فمراقبة حركاته

ولم يكن احد في كل فينيسيا (الا البضعة المختارة العارفة بحقيقة الحال) يظن ان روبرت ستانلي يتهور في الرجوع اليها فسار متمهلاً ولكن ماعتم ان راى ان وراءه شبحاً واذ تأمله قليلاً ابصر رجلاً طويل القامة ملتفاً برداء واسع وهو يتمشى ذهاباً واياباً كأنه ينتظر مجيء احد من الناس اما لباسه فكان يدل على نبالة اصله وانما لثامه كان مخمليا وعريضاً جدًّا وكأنه اراد الاستتار اذ مال نحو ظل الدور حين رأى الفتى يتقدم نحوه وفعل الفتى مثله ابتغاء الابتعاد عن النظر واذا برجلين قد اتجها صوب النبيل الملثم وهما يسيران على رؤوس اصابعهما قادمين نحوه من وراء ظهره ففهم الفتى مرادهما وانزوى الى موضع حتى لا يبصرانه وعند ذلك دنا احد الرجلين من النبيل ورفع حربة بيده واراد ان يطعنه بها واذا بالفتى نهض من مخبإه وقبض على يد الضارب والقى به الى الارض صريعاً فلما راى رفيقه ذلك فر هارباً والتفت النبيل فراى الفتى يمسح حسامه بطرف ردائه والعدو ساقطاً تحت قدميه ورفيقه فارًّا لا يلوي على شيء فقال يخاطب الفتى

يخال لي ان اشكرك ايها الفتى الكريم

لا تشكرني يا سيدي لاني لم اعمل الا الواجب علي تلقاء وقوع نظري على رجلين من الاشرار الاشقياء يريدان قتل رجل فرد

– لكن ذلك ليس بالامر الشائع مبدءه في فينيسيا وعلى كلٍ ارجوك ان تصرح لي باسمك

– بل اسمح لي يا سيدي ان انتفع بسنة فينيسيا في اخفاء اسمي ووجهي لاني لا اطلب لفعلتي جزاء

– وكيف كان امرك وشانك فمن الضرورة ان نعرف الذي انقذت من مخالب المنية قال ذلك واسفر عن وجهه فبان من تحته الكونت فلاسك رئيس مجلس الثلاثة واشد الظلمة قسوة واكثرهم فساداً واجدرهم بالقتل ولما فعل ونظره الفتى اخذته الدهشة والحيرة فما افاق منها حتى عاد الرجل فالقى اللثام على وجهه ومال ليذهب بقدم يحركها العجب وترفعها الخيلاء فلما لوى عاد الفتى يتامله حتى ابتعد قليلاً واذا بقائل يقول متهكماً

– يا له من عمل مجيد قد تم في هذه الليلة

فالتفت الفتى واذا به ازاء وجه شجاع فينيسيا فوضع يده على حسامه ولكن الشجاع بادره قائلاً — اي سيدي روبرت ستانلي اي متى كنت لك عدواً

– صه فان للجدران اذاناً بهذه المدينة

– احسنت فالحق بي صامتاً لان عليك شغلاً مهماً هذه الليلة

– افي هذه الليلة تريد مني عملاً

– بلى ان العمل المقصود مما يتعلق بما يعمل في الرافع

– أانت عارف

– بكل شيء

— اذاً سر امامي على اسم الله ا نتظر لانك من الاصدقاء فهل تعرف كلمة السر هذه الليلة

— بلى وهاكها تاليا عليه فقرة لاتينية اللغة كان البنادقة يزعمون ان ملاكا قالها للقديس مرقص وهو بين رومية واكيليا · ثم صمت الرجلان وسارا حتى بلغا الشاطئ وهنالك وجدا زورقا ينتظرهما فركباه الى اقصى احياء المدينة فنزلا الى البر واخترقا بعض الازقة والشوارع حتى انتهيا الى دار يدل ظاهرها على الضعة والصغر وكان الجو قد اعتكر واظلم والعاصفة على وشك الهبوب والريح يزمجر فوق امواج الترعة فيزيد الاصوات هولا حتى هطلت الامطار وكانت غيثا هتونا

ولما دخل الرجلان الى البيت وجلسا حول الموقد مال الشجاع الى روبرت وقال

— الحق يقال انك يا سيدي روبرت من الابطال لانك عدت الى فينيسيا بعد فرارك المشهور من سجنها

— ولكن هل يتحدث الناس بفراري

— بلى وفوق هذا فان الظلمة يبذلون من يعيدك الى السجن مائة الف درهم فاذا دخلته لاتخرج منه الا الى الاعدام

فلما سمع الانكليزي ذلك حدج الشجاع بنظره وقال

فهلا يوجد في فينيسيا من يسلمني حبا بهذا المال الطائل

— لا يعلم بوجودك هنا الا رجل واحد وما هو الا انا

قال ذلك [illegible] الصيادين ولئلا يظهر [illegible] من قدم عهد تعرضه

لها ولسائر التغيرات الجوية فلما رآها روبرت قال

ولِمَ هذا

اعفني يا سيدي من الاجابة وفوق ذلك عليك ان تعدني الا تفــه ببنت شفة الا باذني علي اني اتولى التكلم عنك

واذ لم يكن روبرت مهتماً بشيء استلم لراي صديقه ولبس الزي الذي اعطاه ثم تبع اثره وكان الظلام قد حلك والنوء قد اشتد وليس في الامكان ان يخرج احد من الناس الى الشوارع فلما اجتازا الى الشاطىء ابصرا زورقاً اعده الشجاع فركباه وسارا به الى خارج البلدة وتبرعها حتى انتهيا الى مرأى احدى الجزائر القريبة فلما صارا اليه وقف الزورق بهما في ظل جدار متهدم تحف به اشجار التين

وكان الفتى روبرت غائصاً في بحار التأملات ولذلك لم يشعر بوقوفهما حيناً حتى لاح له عن بعد زورق يدنو منهما فاشار الشجاع الى رفيقه بملاحظة ذلك قائلاً — راقب وحاذر لان حياتك موقوفة على حرصك عليها اما انا فاني افضل الموت على الاسر وهذا احد زوارق الحكومة

ثم صمت الرجلان عن الكلام لان القارب دنا منهما مسرعاً اذ كان فيه ستة رجال اشداء حتى اذا اقترب اليهما وقف ونظر روبرت فراى شبحاً مظلماً قائماً في الوسط يعضده رجلان فتبين من امر الرجل انه مقيد بالاغلال وان الرجلين يحرسانه ثم رآهما يرفعانه بين ايديهما وقد القيا به في الماء وابتعد القارب بهما عن الموضع

وكان ضرب المجاذيف وشدة النوء واحتدام العاصفة كلها اسباب تحول دون مشاهدة رجال الحكومة للزورق المخبىء وهو يجد حتى بلغ

الموضع الذي رمي به المقيد على ان الشجاع وروبرت كانا ينظران ولا يُنظران لانهما في الظل وقد ابصرا الملقى الى الماء كالجثة طفا فوق البحر ثم غرق وكاد يبلغ القعر لولم يكن الشجاع بوناقي اسرع من ثقله فملا اذ رمى بالخطاف فرفعه به وجذبه نحو زورقه وللحال قطع ربط المقيد قطعاً بمدينه ورفع عن راسه القبعة الطويلة فتبين للرجلين على ضوء الكواكب المشع من خلال الغيوم ان الرجل ليس الا ذيالك السجان الذي كان حارساً على روبرت فشرع بوناقي يستخرج الماء من حلقومه ويعالجه بما اتصلت اليه صناعته ومن ثمّ التفت الى روبرت وقال

– هذا رجل بريء انقذناه من مخالب المنية لانهم اخذوه ظلماً وعدواناً لجناية فرارك من بين يديه فاحذر منه على معرفتك واحرص ان يكشف سرك

فاخذت روبرت الدهشة وامسك عن الكلام ولكنه بذل جهده في مشاركة رفيقه تخليصاً للرجل وما برحا يعملان مدى ساعة من الوقت حتى ثاب اليه رشاده فاخذاه لى بين هاتيك الخرائب وقصا عليه حديث نجاته الغريب

ثم ان الشجاع مال اليه وقال – فعليك من هذه الساعة ان تحسب نفسك كالميت في نظير فينيسيا

وكان الرجل يرتعد من البرد فزاد الجزع في رعدته غير ان بوناقي اعطاه زجاجة من الخمر كانت معه فشرب منها وتقوى وقال

–لكني ارى ان ارجع الى البر (يريد بذلك ما كان من البر تجاه فينيسيا)

- ولا يجب ان نذكر لاية علة كانت ولاي شخص احببت حتى ولا لامراتك واولادك انك كنت في خدمة الحكومة بل من الضرورة ان تتناسى كل شيء حتى اسمك

فوعد الرجل بالطاعة العمياء سيما وانه كان عارفاً بطول ذراع الحكومة وشدة مؤاخذتها لمضاديها

وقبل الفجر كان الرجل قد ابتعد كثيرًا واما بوناتي وروبرت فانهما عادا الى المدينة وسر كلاهما بالراحة والسكينة مدى النهار حتى الليل التالي حيث اتفق الصديقان على الاختلاء ببعضهما للبحث في الاسباب والوسائل الواجب اتخاذها قلباً لهيئة الحكومة الجائرة وادالة منها بسواها

الفصل الرابع والثلاثون

﴾ الحديقة ﴿

لم يكن بوناتي رسولاً تصح رسالته بين العاشقين لجفا خلقه وخشونة عماله ومع ذلك فقد حمل من رسائل روبرت شيئاً الى محبوبته لان العاشق كان يعهد في الشجاع دخوله على القصر واتصاله بمن فيه من غير مانع ولذلك فهو احسن الوسائل واقلها خوفا

وكان من بعض النابوليين في ذلك العهد انه ادخل الى فينيسيا حمّاما على الطرز التركي فاتخذته بعض سيدات البلدة منتزهاً ونعيماً وكان موضعه عند شاطىء احدى الترع وحوله حدائق يتنزه فيها اعيان البلد اذ تضرب فيها السرادق والخيام وتعزف الموسيقى وتدور الحلوى والخمور

والمرطبات ولا يدخلها الا اهل النبالة والمقام ولذلك تحسب من ازياء عظماء المدينة وكان العشاق يتبرقعون فيستترون عن عيون الناس ويقصدون عشيقاتهن الملثمات فيمكنوا لهم الاجتماع ولو غص الموضع بالناس · ولا خفاء ان اللثام كان عادة شائعة في فينيسيا قل ان يشكى من اتباعها او يستراب في ذويها فدفعت الجسارة بروبرت فطلب من حبيبته بيانكا ان توافيه الى الحديقة فيذهب اليها بزي غريب يدبره بالاشتراك مع بوناتي اما هي فتلبس زيا مخصوصاً اتفقا عليه

وكان من عادة السيدات ان يغتسلن عند الماء قبل طعام العشاء وان يقضين ساعة في الراحة والتنزه قبل ان يذهبن لدورهن فلما كان اليوم المسمى تنبيه القوم من ايام المهرجان اي كأنه من الاعياد الحافلة حيث ازدحمت فيه الاقدام وجاءت الاميرة بيانكا قبل المغرب بساعتين وفي الوقت ذاته دخل الحديقة رجلان متماثلان في الهيئة واللباس واعطيا كلمة المرور وناهيك بها عند البنادقة ضرورية حتى في دخول الحدائق والملاهي لان حكومتهم كانت غيورة على شانها بل لا ترضى لعامة الناس التمتع بما تسر بل تحرص على الكتمان لان ذلك منهاجها المالوف وكان معظم الداخلين الى الحديقة ملثمون الا ان منهم قوماً كانوا يعرضون عن التنكر لما يعهدون من اعتيادهم عليه حتى صار التنكير لديهم معرفة فلا يجهلون الملثم الا نادرا

وكان من عادة المستحمين عند دخولهم الحديقة انهم يقصدون الحمام فيلقون فيه عناية الخدم اما المتنزهون فانهم يقصدون استماع الموسيقى وموضع الشراب فيلقون من ذويها اتم الحفاوة اما الشبان والفتيات

فحسبنا في وصفهم انهم يقصدون الانزواء بين الغياض وفي زوايا المتنزه بعداً عن العين واستتارا

وكانت بيانكا ملثمة لثاماً عريضا وسادلة على وجهها فوق اللثام نقاباً على انها مزدانة بالملابس الفاخرة وضروب الحلي ووراءها جارية من تباعها فسارت متمهلة الى موضع خال من الازدحام وفيه خلوات اذا دخلها غير واحد من اهل المكانة حظر على سائر الناس الدخول عليه فقصدت الخلوة ومعها الجاربة الامينة ودخلتها تاركة الجاريه عند بابها للمراقبة

اما هي فجلست على مقعد يستتر عن العيون بما فيه من ضئالة النور وما كاد يستقر بها المقم حتى اقترب منها رجلان كانهما اخوان في طول قمتهما وامتشاقهما وفي تنكرهما حتى ليكاد عارفهما ان يعجز عن التفرقة بينهما

ولما اقتربا من الخلوة دخلها احدهما مسرعاً وانطرح على أقدام الاميرة بينما مال الرجل الآخر والجارية الى جانب ليفسحا للعاشقين مجالاً رحيباً

ولا حاجة بنا الافصاح عنهما اذ عرفهما القاري اللبيب انهما الاميرة بيانكا وخطيبها روبرت ستانلي

ولسنا لنبيح باسرار اجتماعهما الغرامي لان للعاشقين حديثاً يصان الا عن سمعهما وتالله انه لا يقال ولا يكتب اذ يكون على الاكثر لغوًا يحسبه العاشقان من اي الفصاحة والبلاغة ويراه الخالي من سقط المتاع ولهذا نضرب عن الخوض فيه الى نهاية ذلك الاجتماع حين اذ كان روبرت جالساً الى جانب حبيبته تلعب يمناه بشعرها المنسدل على ظهرها

كأنه الليل الحالك وكلاهما ثملان بخمرة الحب يحسبان الدنيا كلها في تلك الساعة .

واذا بهما قد سمعا وقع اقدام فاجفلا ونهض روبرت فوقف منتصباً من غير حراك حتى دخل الخلوة رجل في زي رجال الندوة فنظر الى الغريب نظرة المرتاب بامره ثم خاطب الاميرة قائلاً

- ماذا يا ترى حمل الاميرة بيانكا على الاختلاء بنفسها بعيدة عن اصحابها فلما سمع روبرت صوته عرف انه الكونت فالاسك · اما بيانكا فارتابت لدخوله واجابت

- اني افضل الوحدة

قالت ذلك والخوف يزداد في فؤادها جزعاً على روبرت اذ كانت تعلم عقبى افتضاح امره وان كل قوى ابيها لا تكفي لانقاذه

ويليه اذ سمعت الكونت المخوف يقول .

- الوحدة وحضور العاشق

فللحال وضع روبرت الملثم يده على قبضة حسامه فصاحت به بيانكا قائلة — اغمد حسامك وعلي مجاوبة هذا الكونت الوقح ثم التفتت اليه قائلة — باي حق تقتدر على الدخول عليَّ في خلوتي الا تدري ان هذا الموضع يخصني وانه لا تخترق حرمته طالما انا فيه الا من اريد

- اتسألين باي حق (قال ذلك ورفع اللثام عن وجهه) اني افعل بحق المخطوب بالوعد للسيدة بيانكا واما انت ايها الغريب فبما انك عرفتني فارفع لثامك لارى مَن من الناس تخاطبه خطيبتي سرّاً

- واذا ابيت الاجابة

- نريك النتيجة

قل ذلك ووقف في باب الخلوة واشار بيده لجمهرة من الناس كانوا وقوفاً في ظل احدى الاشجار القريبة

وكان من روبرت انه لما راى الكونت قد ادار ظهره اليها واشار لجماعته انه تقدم من بيانكا وهمس في اذنها كلمة ثم رجع الى الوراء خطوة فوقف في الظل وانتصب وراء الفتاة رجل يشبهه لباساً وقامة بين كانت بيانكا تظهر الحدة والغضب ثم رجع الكونت ومعه ماسير كراند واثنان من الشرطة وخاطب الرجل المنتصب وراء الاميرة قائلا

- فالآن اخاطبك ايها الرجل المثم باسم حكومة فينيسيا وبالسلطة المودعة بيديَّ ان ترفع اللثام عن وجهك او يذهب هؤلاء الرجال بك الى السجن

فنظر الرجل المتنكر الى بيانكا كمن يسأ لها راءيها فقالت

- طع الامير

فمد الرجل الطويل يده وازاح متمهلاً البرقع عن وجهه فبان من تحته محيا بوناتي الشجاع وعليه ملامح الهدؤ والسكينة والرصانة فلما رآه الكونت وقد ظهر غير ذي مظنة صاح وهو يصرّ على اسنانه حنقاً من نفسه قائلاً — ويك ما هذا

— اني بخدمة حضرة الاميرة بامر صاحب السمو ابيها اما بيانكا فكانت نظراتها تدل على الرزانة والسكينة وما عتم ان فتحت فاها قائلة اترى ارتضيت يا ايها الكونت بما رايت

— كلاً فان في الامر خدعة لا بد من كشفها فاذهب يا مسير

كراند الى الابواب واحفظها ولا تدع احداً يذهب مالم يكشف القناع واعتقل اي غريب رايت

فهرول الشرطة لامتثال الامر اما الكونت فالاسك فقال بصوت يتهدج غيظاً — انت يا نوما بوناتي خذ حذرك لان الدوج يقول انك خادم للجمهورية امين على مصالحها صادق في طاعتها وهذا ما أؤمله منك لكن حذارك من الخلاف فان في المدينة اشاعات غريبة مؤداها انك اسعفت غير واحد من الناس على الفرار

— اتعني عن كوزمو اللص

فنظر الكونت اليه وراه يتظاهر بغير ما اراد من المعنى فعضَّ على شفتيه حتى ادماها او كاد ولكنه تمالك وقال

— بل اردت بقولي السار روبرت ستانلي الانكليزي الذي سجن في سجون الحكومة لاسباب سياسية على انه لم يخرج منها الا باسعاف غير واحد من الناس

— اتريد به الذي نال الجزاء الكافي

— ليس ذلك فقط بل ان بين المتآمرين جماعة ارفع منزلة من ذلك المسكين الذي نال القصاص ليكون عبرة لسواه ونذيرا بسوء منقلب اهل الخيانة او الاهمال

فلم ينبس الشجاع ببنت شفة جواباً وانما اكتفى باحناء راسه ثم قال

— وهل لسعادتكم من ملاحظة اخرى

— لا وانما اكرر عليك التحذير

وكان ذلك آخر عباراته وهو خارج من الخلوة يتقد غيظاً ويتلهب كدرًا حتى اذا صار بعيدا مالت بيانكا الى الشجاع تسأله

- اي بوناتي اين هو

- لا تخافي يا مولاتي لانه غفل القوم عن دخولهم الينا وفرّ هارباً ولا ريب انه نجا قبل صدور الامر

- امال لله ان يكون الظن صحيحاً فيا ربي اليس لهذه الاسرار والمكنونات ومانحن في ذيلها من شقة والويل آخر يرجى

ثم دعت بجاريتها وخرجنا والشجاع في اثرها فرأت في الممشى الامير فاركاس وامرأته فابتسما لها واذ لم يكن معهما احد قصت عليهما حكايتها فقال لها الكونت — تربصي مع زليخة فانا ذاهب الى الباب ولا اعود الا بالخبر الشافي

فلما بلغ الابواب رأى رئيس الشرطة ماسير كراند وسرية من جماعته والناس مزدحمين عليهم يكشفون اللثام غير مترددين والقوم يقولون لهم انهم انما يطلبون شقيا اهان ابنة لدوج وخرج

ولكن بحثهم لم يأت بنتيجة ومع انهم طافوا اكناف الحديقة وكشفوا عن وجوه الخارجين لم يعثروا للفتى على اثر

الفصل الخامس والثلاثون

الاجتماع السرّي

وعاد الكونت فاركاس الى قصره والدهر تضطرم في فؤاده والحنق

احذ منه ماحذا عظيما لانه عرف ان القوم خدعوه فاوشك ان يلقي القبض على الشجاع ويزج به في السجن ولكن ذلك يكدر الدوج لان بوناتي من اخصائه والكونت لم يكن راغباً في الاجهار بعدوان الامير المظيم لانه شيخ جليل

وكان فلاس من اهل التحيل والخداع فرى ان يتخذ من الشجاع خليلاً فينال به بعض الارب فسكن بلباله لهذا الظن وبعد ان اكل شيئاً وارتاح قليلاً الى قبل نصف الليل بنحو ساعتين نهض ودخل حجرة مخصوصة مزدانة بانواع الزخارف واسباب الراحة وما عتم ان وافاه اليها نبيلان آخران وكاتب بيده صندوق مختوم

فاقترب النبلاء الثلاثة من مائدة هنالك وشربوا عليها بعض كؤوس الخمر وعادوا الى مجلس الديوان فهؤلاء هم الرجال الثلاثة المشهورون بعددهم وانهم رعب فينيسيا وفي ايديهم الاثيمة حياة البنادقة ومماتهم من كبيرهم الى صعلوكهم

وكان من الكاتب ان كسر ختم الصندوق وفتحه واذا به يحوى الشكاوي المأخوذة عن اليوم الماضي والليلة السابقة مما نقل بفم الاسد ففحصها الجائرون الثلاثة واذا بمعظمها من الطعائن التي لا تحسب ذات بال بل قضوا عليها انها صادرة عن الحسد الا ثلاثاً منها احداها ان كوزمو اللص في البلدة وان من عزمه ايزاء الكونتة فاركاس فلما سمع فلاس هذا ابتسم كأنه سر به وقال

- الا ان الرجل ليس بذي جنة

قال الثاني وما هي بالاولى

الثالث — ان في المسألة لخطرًا

فاجاب فالاس — سنري في ذلك

ثم قرأ الكاتب الخبر الثاني قائلاً — ان روبرت ستانلي الذي فرّ من بين حجر الرصاص في السجن فكان فراره مدهشاً واوجب الهزء بالندوة العليا موجود لهذا الحين في فينيسيا وهو يجهر بمناواة الحكومة

فقال فالاس — لقد صدقت والله ظنوني على ان ايجاده ضربة لازب ولا بد من البحث الدقيق في كل موضع وغدا ستكون كل دور فينيسيا عرضة لزيارة الباحثين ويبقى ذلك اربعاً وعشرين ساعة

فلم يجد من رفيقيه الا رضوخاً واذعاناً فقرأ الكاتب الشكوى الثالثة ومؤداها ان الكونت ادريان فاركاس متزوج بامة بيعت في سوق القسطنطينية وهذه الحقيقة سيقام الدليل عليها بعد بضعة ايام

فلما سمع النبلاء ذلك قال احدهم ان هذا القول لجنون مطبق

فاجاب فالاس — لا اعلم موضع قولك من الصواب لان في امر هذه الغادة سرّا مصانا سيما وان القول بانها اميرة يونانية سباها كوزمو اللص وانقذها ادريان من بين يديه مما لم يثبت بالدليل فلا بد اذاً من البحث في امرها

فصدق ثالثها على الاعتراض وتقرر ثم البحث في المسألة واعتقال الرجل وامراته ووضعهما كلاً لوحده ليظهر صدق التهمة

فلما تمّ ذلك مزقت الاوراق المهملة وحفظت الثلاثة المهمة وخرج الكاتب من الحضرة فبقي الثلاثة يتذاكرون ردحا من الزمان ثم نهضوا وتقنعوا باللثام وتقلدوا سيوفهم وارتدوا بالاردية وخرجوا من القصر

كانهم يريدون التنزه معاً حتى اذا بلغوا الماء وجدوا زورقاً في انتظارهم فركبوه الى حي سان مارك فردوا الزورق على عقبه ووقفوا هنيهة في ظل البناء حتى ظنوا انهم منفردين فتبطنوا بين الاعمدة ولبثوا فقال فالاس

- كل شيء لدينا حسن

- صدقت

ثم مال فالاس صوب احد الاعمدة ففتح منه باب دخله الرجال الثلاثة واحداً فواحداً فبرز رجلان من وراء عامود آخر وقال احدهما يا للعجب انهم تبطنوا الحجر الاصم ولكن الحكمة في الاختفاء فعادوا الى الاستتار وما زالوا هنالك حتى شهدوا عديداً من الناس ياتون الموضع ويدخلون من حيث دخل الثلاثة حتى انقطع واردهم فاندهش الرقيبان بوناتي وروبرت ستالي وتقدما الى العامود ففحصاه فحصاً دقيقاً وفتشا فيه على سرّ افتتاحه وبعد الجهد عثر بوناتي على ثقب يدخل الاصبع منه فمد اصبعه اليه فاحس بزر نحاسي فيه فكبس عليه واذا بالعامود الكبير قد فتح الى الداخل وظهر للرجلين سلم مظلمة الارجاء ضيقة الدرجات فدخل بوناتي اليها واغلق الباب تاركا روبرت خارجه وانما فعل ذلك استهداء على سر فتح الباب من الداخل حتى اهتدى اليه بمس الاصابع ففتحه ودخل روبرت معه فنزلا السلم دبيباً ووقفا عند منتهاها حيث وجدا موضعا اشرفا منه على حجرة مستنارة باضواء كثيرة من مادة ذات دخان فهمس بوناتي باذن روبرت قائلا اتعلم انا في قلب الارض بل تحت البحر في حجرة تكتنفها الماء من كل جهاتها

ونظر الرجلان من موقفهما الى باطن الحجرة واخترقت نظراتهما الدخان الكثيف فابصرا نحوًا من اربعين رجلاً من سراة فينيسيا واعيانها وكلهم يتكلمون همساً حتى وقف فيهم غير واحد منهم وقال بصوت جهوري — اكلّنا هنا وهل حانت الساعة

— نعم كلّنا مجتمعون والوقت قد حان

وعند ذلك جلس القوم على مقاعد من خشب كان المتعبدون الاقدمون يجلسون عليها ايام مخاوفهم من الظهور وظلت مجتمعاً للبحارة والصيادين حتى اغلقها الملأ الأعلى

ونهض فالاس يخاطب القوم نادباً سوء حظ فينيسيا لانها ورثت عن السلف بلاداً واسعة كانوا يزيدونها على ممر الايام فصارت يومئذٍ تجهد النفس في حفظ قوتها وبقاء متملكاتها التي طمع الاعداء بها

فلما سمع الحضور ذلك سألوه قائلين

—ولمَ ذلك

— من ضعف اليد القابضة على ازمة الحكومة

ثم شرع يبين للقوم ان الضرورة تقضي عليهم باختيار حاكم احدث عهداً واشد حولاً اذ ينهض بنفسه نهضة الاسد فيهتاج لنهضته الجند في البر والاسطول في البحر ويظهرون للاعداء من كل نمساوي شديد وفرنسي منيع وعثماني باسل وانكليزي بحار انهم قدر من الجميع وامنع من عقاب الجو وما برحت القوة تنتهي اليهم والقدرة تعتزبهم

على ان عزل الدوج صعب المنال ولا يخلو من خطرٍ لان البحارة يرون فيه عظيما وكذلك شأنه مع عملة السفن وعامة الشعب

وبعض النبلاء ولذلك لا مندوحة لنا عن اتهامه سرًا ببعض الذنوب واخذه تحت المحاكمة وقتله سريعا قبل ان يتألب مريدوه

اما الشكوى فقد اعدها وهي اتهامه بتهريب كوزمو اللص وروبرت ستانلي الانكليزي الذي لا يجسر على ارتكاب مثل تلك الفظيعة ما لم يكن له عضد بين العظماء

ومن ثم فانه ترك لحكمة المجتمع تقريب ذلك واختيار دوج جديد يخلف المحكوم عليه ومع انه لا يرغب في تخفيض شان السنن القديمة فان من اقصى امانيه تقليل عدد الحاكمين في فينيسيا

وبمثل هذه الكلمات وغيرها اوض في مؤاخذة الدوج والمؤامرة على الحط من شانه حتى جلس فنهض لمعاضدة رايه كثيرون من الحضور واعقب اجماعهم على لامر اهتمامهم باختيار دوج جديد يتقلد امرة الجند وينفذ احكام المجتمع فشرعوا يقترعون كاتبين اسم منتخبهم على رقعة يطرحون بها في الاناء الذي طيف به عليهم وكانت عدة الاصوات تدل على مناهج القوم وافكارهم اذ ان سبعة منها اجمعت على انتخاب فالاس دوجا ووليها خمسة لآخر واربعة لآخر وهكذا كان بينهم غير واحد من المنتخبين الذين اختاروا انفسهم بصوتهم فقط فلما راى فالاس ذلك اعاد الانتخاب فاجمع القوم برمتهم على اختياره فصار دوجاً واحنى الباقون له رؤوسهم خضوعا وطاعة وللحال اختار من بينهم ثلاثة رجال وعينهم له مجلسا خاصاً لمشورته ثم فضّ الجلسة على ان يكون الاجتماع الاول عند الحاجة اليه وجعل كلمة للسر يتخذونها اجازة لمرورهم ولما اتموا ائتمارهم نهضوا وخرجوا وكان ثمة رجل جالس بينهم لم ينطق بكلمة

واحدة فلما ارفضّ اجتماعهم وقف واطفأ المصابيح وخرج آخر الكل

وكان الشجاع وروبرت قد ظلا في مكانهما مستترين وهما صامتان حتى خرج القوم وتفرّق شملهم فقال بوناني

- تالله انه سيكون للجلاد شغل مهم

ثم انار المصابيح ثانية بمادة كانت قارورتها لا تفارق جيوبه انتفاعاً بها حين الحاجة ومال لرفيقه فقال — بقي للفجر ٤ ساعات وهي تكفينا في استطلاع سر هذا المكان ثم خرج ولحق روبرت به حتى انتهيا الى دهليز ضيق مقبو بالحجر وله سدود من حديد فهمس الشجاع باذن روبرت قائلاً

- اترى هذا الموضع

- كيف لا

- انه المكان الذي ساءت به سمعة فينيسيا اذ فيه جماعة من مناكيد الحظ الذين غضب الجائرون القساة عليهم فابلوهم من هذا الحبس بما لا يطاق فهل تريد ان نخاطر قليلاً لانقاذ بعضهم

- اريد ذلك واتمناه من صميم فؤادي فمرني ترني اطوع لك من بنانك لاني ذقت طعم حبوس البندقية فصرت اشفق على الذين رماهم الدهر فيها

فتقدم الشجاع من احد البابين وفتحه اذ رفع المصراعين الحديدين اللذين يوصدانه ودخل مع رفيقه فابصرا شيخاً جليلاً شابت ناصيته فزادته وقارًا وهو ملقى على حزم من القش وفي عينيه عمى

فلما شعر بهما استيقظ وقال بصوت يتهدج ضعفاً وخوارًا — ماذا

تريد ليس هذا بوقت الطعام انفصد قلبي بعد عذاب اثنين وثلاثين سنة

نحن رجلان من الاحياء لذين ينصرون الضعفاء والمظلومين ويكرهون ظلم الظالمين ويناصبونهم حرباً عواناً فمن انت وما شانك

— بالله ايها الرجل لا تخادع ولا تهزأ برجل قضى عمرًا طويلا في اشد الويل واحط الهوان حتى اصبح كسيحاً اعمى

— انما جئنا لنعمل خيرا شان الاصدقاء المحبين فاذا شئت فانا لا نلبث لن نحملك الى حيث تسم نسائم لهواء النقي

— رعاكما الله وحماكما من العدى فاعلما اني انا هو امير هذه البلاد انا داندلو الاعمى دوج فينيسيا سابقا

يالله عرفت ان ذيالك الدوج قضى من منذ كنت طفلا

— صدقت يا بني تماءت عنك وعن سائر اهل العالم غير ان قاتلي ابقوا عليَّ والقوني في هذا المكان لاموت فيه الوفا من الميتات ومع اني على آخر رمق من حياتي فاني يسرني ان اتنفس الهواء النقي قبل مبارحة الدنيا

— وانك ستنال ذلك ايها المولى الشريف

ثم مد له يده فاخذها الدوج القديم وستعان بها على النهوض · ومع انه كان في احط دركات الضعف والخور وفيهِ الكساحة والزمانة والعمى فان قواه تجددت لبشائر الخير حتى مد يديه واستلم الرجلين ومشى بينهما متوكئا عليهما

وكان من اشاعة حديثه انه مات ودفن منذ زمن طويل فاعقبه اميران اولها المؤتمر على [illegible] مدة سنتين وتلاه لدوج الحالي

ومع ان العدالة كانت تقضي بارجاعهِ الى منصبه بعد موت خلفه فان الحكومة الجائرة ظلت عاملة على اخفاء امره وابقائه في العذاب الاليم حتى آخر انفاسه

ونظر الرجلان في بقية المحبوس فلم يجدا فيها الا شاباً من الاعيان مسجوناً بتهمة فراره الى نابولي مع ان حقيقة حاله انه كان في مناظرة غرامية مع ابن الكونت فالاس فلما خلصه الصديقان سألاه الوعد بالسكوت فوعد مسروراً بالنجاة ثم سار الاربعة من مواضعهم حتى انتهوا الى العمود ففتحه بوناتي بما ملك من سره حتى انتهى الى ظاهره فخلع هو وروبرت الردائين اللذين عليهما والبساهما للرجلين وسارا معهما كأنهما من الخدم المسلحة حتى انتهوا الى زورق فركبوه

وما مضت عليهم الساعة حتى وضع الدوج الاسبق على فراش وثير في مخبإٍ لا يعلم به الا الله وصاحبه وذلك في دار الشجاع وكانت تلك الحجرة المستترة مطلقة للهواء والنور فاقام الدوج والسجين الآخر فيها يجدانها قصراً فاخراً بعد محبسهما الهائل وسبحان من بيده الامر انه على كل شيء قدير

الفصل السادس والثلاثون

﴿ افتضاح السرّ ﴾

كفى اليراع خوضاً في مضمار الكلام بيانا لما الم بندوة النبلاء من الانقباض والاستياء ان فرار الدوج الاسبق والفتى اقام قيامتهم ولكنهم

لم يجهروا بشيء لان الاجهار بذلك يضرهم كهرب المسجونين او اكثر فاجتزأوا عن كل ذلك بان دسوا العيون والارصاد في انحاء المدينة واطرافها وفي كل اماكنها من قصور العظماء الى اكواخ الفقراء ليختلسوا النظر والسمع لعلهم يهتدون الى الخفي المستور فينالون من الحكام جوائز العمل وان هي الا الاموال الطائلة والزلفى من الظالمين

وانهم ليروعهم تكرار الفرار من قبضة ايديهم وحسبهم في المدة القصيرة نجاة روبرت ولذين ذكرنا . وكل ذلك يفضح اسرارهم و يبليهم بما لا يطاق غير ان اشد الامور هولاً ما حسبوه من ان اولئك المسجونين لا يقتدرون على الفرار الا اذا نصرهم بعض الخونة الذين يظهرون للجائرين انهم منهم ولكنهم على خلاف ذلك مناصرون لمضاديهم فعقدوا العزم على البحث الدقيق وانهم ليظلوا على سعيهم وبحثهم حاسبين كل واحد اخاه عدوًّا حتى يبين الفاعل وتنكشف طمنه وزادوا على ذلك قرارهم على الاضراب عن الاجتماع في بربي سان مارك الى ظهور الاثيم

وخاف بعض المؤتمرين من افتضاح سرهم ووقوعهم تحت طائلة العقاب فارادوا الانكفاء عن التمادي في غوايتهم ولكن خوفهم من الانفراد دفع بهم الى الانضمام ومزيد الالتحام

وكان كوزمو اللص قد عاد الى فينيسيا وفي نفسه من العزيمة على الانتقام من ادريان وزليخة ما يدفع به الى ارتكاب عظائم الموبقات وكأنه ازداد لادريان كرهاً مذ رآه يصعر خده عند ذكره احتقاراً لامره ولا يحسب لعمله حساباً ومتى سلمنا انها ارتضت بما نالت من قران اللص واحراز لقبه السابق شقيقته اذ صارت لدوكة مالاسبينا ولكن

بقي في صدرها شيء من الحزازات ضد كونتة فاركاس على انها قبيل ذلك كانت منقبضة النفس لخسرانها حسبا لم تنله اريد بذلك ما كانت تعلل نفسها به من غرام فاركاس

وكان الخبيث كوزمو قد عاد بها الى فينيسيا فاسكنها قصر مالاسبينا المهجور بحيلة استدعاء احد الانسباء الاباعد من الحكومة ان تشهر موت الدوك مالاسبينا صاحب القصر وان يسلم الى اقرب الانسباء بحق الارث واذ كان للدوج مقاصد فيما يتعلق بهذا الارث ارتضى باجابة الطلب وكذلك كانت واردات امارة مالاسبينا وافرة تزدخر في صناديق الحكومة ولهذا يستطاع تصليح القصر على احسن حال

وكان نسيب مالاسبينا يسكن البر فالتمس من الحكومة ان يبقى القصر تحت رعاية رجل من أتباعه يقال له رودريكو فيقيم فيه مع ابنته الوحيدة و يناظران العملة المشتغلين في تهيئته وتزيينه وحفظ رياشه الثمين وصوره البديعة القديمة

وكانت الغرف المخصصة بالخدم صغيرة الا انها على جانب من النظافة وحسن الرياش

ولما كانت الليلة التالية زمن الحوادث المذكورة في الفصل الماضي ضاءت تلك الغرف واستنارت بما لم يسبق له مثيل على ان النظر اليها من الخارج لم يكن مستطاعاً . اما نوافذها فكانت تشرف على باحة الدار

وشرع الخدم على توفر عددهم يهيئون لمائدة كانها لوليمة حافلة ويبسطون عليها لآنية الفاخرة من كل بديع وثمين مما لا يخلق اتخاذه

في مآكل الخدم وعامة الناس

وفيما هم يعملون دخل سيدهم فالقى بنظره عليهم وعلى ما عملوا ولم ير ما يدهشه بل ظل مصعرًا خده استصغارًا لقدر اعمالهم ثم القى عنه شارة الشيوخ ولباس الزج العاجزين فبرزت من تحته ملابس اهل الازياء الفاخرة ومن ثم نظر الى المائدة واصدر لمن حولها بعض الاوامر وخرج فدلت حركاته ان عنده في ذلك اليوم حفلة يقيم لها مأدبة فاخرة وما عتم ان جاء المدعوون زمرًا حتى بلغوا الاربعة عشر ضيفاً كلهم من النبلاء المنقسمين في الشقاء والخبائث ومن ينضم اليهم من اهل شاكلتهم

فلما تكامل عديدهم دخل الدوك مالاسبينا حلقتهم بملابسه الفاخرة وعلى ذراعه تتوكأ امراته الغادة الحسناء في ابهى الحلي والحلل فحيت الضيفان وما لبثوا ان ساروا تحت كنفها الى قاعة المائدة فجلست الى صدرها والضيوف من حولها يتنعمون بالحظ والسرور آكلين مريا وشاربين هنيا كأن الدهر جمع في ساعة وانهم ليغنمون ملاذ تلك الساعة

وازداد الرجال شرباً لعلهم يجمدون افكارهم المضطربة خوفاً من الشر الذي اوجسوه لوجود بعض النساء بينهم على ان اسم المضيف لم يذكر في شفة او لسان . وما ادرانا ان واحدة او اكثر من هاتيك السيدات لم تكن في جملة عيون الحكومة . ولكن ما عتم ان رفعت موائد الطعام وبسطت موائد الميسر بما تهيأ من ادوات اللعب فتبين لمن لم يعلم مغزى هذا الاجتماع ان القوم يقامرون وانهم كلهم من الرغاب في هذه الرذيلة على ان مضيفهم زعيم عليهم وامين اموالهم

وكانت اولئك النساء كالرجال في تعشق القمار والانهماك به بل ربما زدن عليهم في الاستغراق به الا سليمة فانها انزوت عن القوم الى احدى زوايا القاعة ثم مرت من وراء احد السجوف الى دهليز مظلم انتهت منه الى شرفة وهنالك اطلت على قصر فاركاس وتاوهت كانها تتاسف على حرمانها نعيم البقاء فيه وزاد اسفها لما رات فيه من داعيات السرور اذ سمعت آلات الطرب عازفة بما يكاد يحيي الجماد ولم يكن بين الامراء اسخى من ادريان يدًا ولا ارسخ في المكرمات قدما ولا ارغب منه في التمتع بنعم الحياة المحللة

واذ كانت نوافذ قصره مفتحة رات سليمة الرقص دائرًا على الالحان فعضت على شفتيها حتى ادمتها

ساعتئذٍ ابصرت زورقاً كبيرًا مر من تحت الشرفة مندفعا بسرعة التجذيف ولكن من غير ان يسمع صوتا وكان في الزورق رجلين غير المجذفين فقال احدهما — ان في هذا البناء لحديثا قديما ينبيء عن فظائع جمة ومظالم شتى ولكن لكل شيء نهاية وقد انتهى امره ولا تمضي عليّ ايام عدة حتى اطلع على اسراره

— ذلك ما ارجو لان سلامة زليخة وصديقي ادريان متوقفتان على استئصال شافة الشقي واتباعه واني لاحسب البنية من الشقاء والضرر لا يقل عن نصيب زوجها منها

ثم مر الزورق تاركا سليمة في حالة الاضطراب والقلق لا تدري لما مغزى لانها لم تفقه لاول وهلة اتجاه كلامهما على انها امعنت النظر فعرفت ان المقصود عن كوزمو وعن ذاتها فعادت على اعقابها الى مجتمع

المقامرين وصبرت عليهم حتى مضوا فقصت على زوجها واقعة امرها فقال
- حذارك منها ومن الحظ انك سمعت حديثها لتاخذي لنفسك
الحيطة كما اتخذ الاهبة

وكذا كان فان في الصباح الباكر دخل القصر جماعة من
الشرطة تحت زعامة ماسير كراند والشجاع بوناتي وشرعوا يفتشون فيه
فوجدوا ثمة شيخاً قديم الايام وفتاة هي ابنته وثلاثة رجال من الخدام
ولم يعثروا على اثر لمن يطلبون لانهم خرجوا ولم يتركوا شيئاً على ان
اسرار هذا القصر ومكنوناته كانت خفية عن كثيرين

الفصل السابع والثلاثون

رسالة تحير الالباب

كانت زليخة اميرة فاركاس قد صارت في اعلى ذرى السعادة
وارفع فنن السرور لانها ادركت الراحة بعد العناء وبلغت ما ارادت
من نعيم المقام بعد اذ قضت في النكد والشقاء معظم ايام الصبا فنيل
الراحة العظمى بعد التعب الشاق سعادة يغبط عليها نائلوها على ان
زليخة كانت ترتعد جزعاً من ذكرى الماضي لايجاسها من رجوعها اليه
اما الكونت ادريان فكان مثال الازواج حبا لها واحتفاء بها واعتداداً
برضائها واتمام رغائبها والحرص على وقائها من لفحة كل ريح بل كان
يدأب على صيانة مسرتها من تذكار الماضي ولذلك جعل لها من الاصدقاء
والاحباء من تعتمدهم في المهات وتسر بهم في الخلوات ويسر لها معدات

النعيم فمرحت ما شاءت الشبيبة والعظمة

وكانت بيانكا بنت الدوج صديقة لها حميمة تجالسها معظم ايامها وتصرفان الاوقات بذكرى روبرت ستانلي والتحدث عنه على ما المعنا اليه قبلاً وكلتاهما ولا ريب كانتا عارفتين بوجوده في العاصمة ولكنهما تحسبان الاجتماع به بعيداً عن الحكمة والسداد ومع هذا فشأن العشاق الاستخفاف بالمخاطر والتهور في اقتحام المهالك التماسا للاجتماع فتتوفر لديهم الحيل ويتخذون الخدعة سبيلاً للوصال . ومن الغريب ان بيانكا وخطيبها كانا عارفين بوقوعهما تحت المراقبة الشديدة لان الكونت فالاس كان قد امتعض لرفض الزواج به فدس العيون والارصاد لايذاء العاشقين واقتناص مناظره حاسباً ان تسويف الجواب رفض قاطع للعذال ومع ذلك فالرغبة في نيل بيانكا كانت تعلله بالاماني فعقد العزم على ان يطلب الجواب الصريح رفضا او قبولاً فعارضه من عند نفسه مانع الا وهو انه ابى شرف نفسه ان يسعى بمراده منها وعذوله فيها يمرح في البلدة ويشطح هازئاً بقدرته

فاستعاض هو ورفاقه عن تلك البغية بما ائتمروا عليه وعقدوا العزم على نيله مما استفضنا بذكره من قبل ولم يكن سعيهم اختشاء من الدوج دونولو الاعمى لان انصاره كانوا قد تفرقوا من منذ حسبوه قد مات ولم يبق منهم حتى يومئذٍ من يهاب ولكن خشيتهم ان يفتضح السرّ ويعلن الامر فيؤاخذ الظالمون بفعلهم وقد صارت شهرتهم حتى يومئذٍ على شفا جرف هار اصاروها اليه بتتابع اعمالهم الاثيمة فخافوا من ردّ الفعل ولكنهم لم يدركوا ان العدو بالمرصاد وان الامر على وشك الوقوع

وبذلوا الجهد جهيدًا في استطلاع سبيل الفرار من سجنهم فلم يدركوا لذلك اثرا

وكان فرار الدوج الاعمى سرًّا عن سائر الناس الا عن المامورين واما عامة الناس فانهم لم يعلموا شيئاً عن ذلك الحادث الغريب . اما الكونت فاركاس فكان يقيم على خدمة الدوج فاذا تمكن من الفرصة ذهب الى البر لملاحظة املاكه تاركا زوجته زليخة لوحدها

ففي ذات ليلة ودعها ادريان ومضى على عزيمة ان يتغيب يومين فجلست في حجرتها تنظر الى البحر وترى في اتباع احد الخاطرين اما ان تزور بيانكا صديقتها او ان تاخذ احدى جواريها وتتبرقع فتنزل السوق وتتنزه بين الناس شان ربات الامارة في تلك الديار ثم عزمت على ان تدعو النساء اللواتي يطربنها بالالحان ولكنها احتارت وما اختارت لانها رات اسباب المسرات لديها جمة فما فضلت احداها عن الاخرى وكأنها استسلمت للقدر فدبر لها ما لم يكن في حسبانها ذلك ان جارية لابسة ملابس غير مالوفة عندها دخلت الحجرة بغتة وحيتها تحية شرقية فقالت لها زليخة

– ما وراءك يا بنية

فجثت الجارية عند ركبتيها ودفعت اليها رسالة عرفت زليخة مذ وقعت عيناها على حروفها انها من خط بيانكا لانها كانت تحسن القراءة والكتابة مما كان نادرًا في عصرها ومصرها

فاخذت الكتاب وفضت ختامه اما الجارية فظلت عيناها شاخصتين بالسيدة وهي تقرأ وليس في الرسالة المختصرة الا قولها

عزيزتي زليخة

وعدت روبرت ستألي باجتماع سري ولست لاركن الى سواك في مرافقتي الى الموعد فهل لك ان تأتيني لتلك الغاية ولا جناح عليك لانك متزوجة وصديقتي الحميمة ولا اكلفك الا ان تتقنعي باللثام وتأتي اليّ فتجديني في زورقي تحت القصر والسلام

صديقتك
بيانكا

فللحال نهضت زليخة على قدميها وامرت الجارية بالتربص قليلاً ريثما وضعت اللثام وارتدت بالجلباب فاسرعت وراء البنية الى سلم البحر حيثما رات زورقاً ينتظرها وفيه رجلان ليس الا فلم تعجب لذلك لما عهدت من السر في ذهابها ورفيقتها فدخلت الجارية الى الزورق ولحقت الكونتة بها اليه وما عتم الرجلان ان شرعا بالتجذيف الشديد حتى اسرع الزورق سرعة عظيمة ونظرت الاميرة الى داخل القارب فراته مظلماً فظنت ان بيانكا فيه فقالت — اي حبيبتي بيانكا ما هذا فقد اخطات بكل هذه المخاطرة حباً باجتماع لا يطول اكثر من بضع دقائق

فاجابها صوت خشن يدل على الجفاء قائلاً — لقد خاطرت بكل شيء

فكادت تصيح لسماع هذا الصوت ولكن تلعثم لسانها وادركها الحصر ولم تملك من نفسها رشادها حتى القي عليها رداء كبير لا مجال معهُ لاستماع صوتها فشعرت عندئذٍ بالاحبولة التي نصبت لها فوقعت فيها وارتعدت فرائصها لهول التفكر فيها ومع ذلك لم تكن الخدعة الا محكمة

لان الخط كان شبيها بالصحيح وكانها نسيت من قبل ثم ذكرت حينئذٍ ان الخط يقلد كثيرًا سيما من الذين يحترفون التزوير ونساخة الخطوط لتقليدها وكان اولئك القوم في فينيسيا كثارًا

ولم تكن المانعة بذات جدوى لانها عرفت بوقوعها بين يدي رجل لا يرحم ضعيفاً ولا تاخذه الشفقة ومع انها تخلصت من بين يديه مرارًا فان المثل يقول ليس في كل مره تسلم الجره وقد عهدت به التوحش والقسوة فما توقعت منه غيرها

كل هذا جرى والزورق يسير بركبه فوق الماء والركب صامتون لا ينبسون ببنت شفة وهم كذلك واذا بالقارب وقف بغتة فشعرت زليخة كان يداً متينة العضل قد لفت حوالي خاصرتها فحملت فاغمي عليها ولم تعِ على ضبط الوقت ولا معرفة الموضع وانما احست انها وضعت على سرير وأُخذت الساعة من الحجرة وتركت فيها مع كوزمو فنظر الشقي اليها نظرة باغ هولها الى اقصى عظام الاميرة التعيسة ومن ثم قال لها

- والآن ما ذا تقولين يا بنية فانك تحت امري وفي قبضة يدي وليس في الامكان وجود امير يخترع الحيل لاجلك بل صرت في حوزتي ايتها المعجبة بذاتها

- بل اني تحت رعاية الله وفي كنفه ولسوف يجد زوجي في طلبي فاما ينقذني واما ينتقم لي

- بل لا ترين بعد لآن له وجهاً لانك لا تخرجين من هذا الموضع حية الا اذا

فما اتمّ العبارة اذ وقف على عتبة الباب خادم اخرس واشار اليه انه مطلوب فللحال خرج اللص الشقي تاركا الغادة لوحدها فنظرت حواليها واذا بالحجرة التي كانت فيها لا يظهر انها ذات ابواب ونوافذ لانها مستديرة على شكل القباب

وكان اثاثها فاخرًا وفيها عديد من الشموع المضيئة وعلى المائدة التي فيها خمور واقداح وآلة عزف وبضعة كتب كانوا يحسبونها يومئذٍ خليقة بمطالعة النساء غير ان زليخة لم تر كل ذلك جديرًا بالتفاتها لان افكارها اتجهت صوب حليلها فتصوّرت عظم كدره وغضبه عند ما يعلم بهذه الاهانة الجديدة

اما اللص الشقي فانحدر الى حجرة اخرى فوجد فيها صديقه الكونت فالاس وهو في قلق واضطراب فمال اللص الى خادمه المتخذ الخرس حرفة واشار اليه بالانزواء لرغبتهما في الخلوة فتركهما الخادم ومضى

وكان اللص في اول امره يشرب الخمر باعتدال ولكن الادمان عليه وتتابع الارتكاب والجرائم ومحاربات الضمير كل ذلك زاده رغبة في الخمر فصار قوام حياته ولهذا لما وجد منه في الحجرة ملأ منه كاسين شرب احداهما واعطى الأُخرى لصديقه وذلك قبل ان عرف الواحد منهما شأن الآخر وبعد ان شربا قال كوزمو

- اراك مضطرباً

- كيف لا والخطر يتهددنا اذ وجد في فم الاسد شكاتيان ممضاتان بتوقيع المدوج دندلو تشيران اليّ واليك

- اذًا من الواجب النظر في ذلك

- وكيف نستطيع هذا وبعض اصحابنا قد جبنت نفوسهم ولا بد من ان يعترفوا بالامر تخليصاً لرؤوسهم

- لا تجزع فان قاربي معد للسفر فاذا دهمنا الشر نتخذ الفرار سبيلاً للنجاة الى جنوا حيث لي هنالك غنى وافر من جـواهر كريمة واموال طائلة نكتفي بها بل نعيش بنعيمها اغنياء الى آخر الدهر

- يا ليتها كانت هنا فانا نتخذها عضداً ونستعين بها على بقاء انصارنا واستخدام الجمهور

- نستطيع ان ننجح بدونها اذا اسرعنا في العمل وبذلنا الجهد في حسن القصد فهل انت واثق بالدلماسيين

- ان زعيمهم ليون كريكوريو من اصدقائي بل من خدامي

- فلنسرع في النهوض باعمالنا لانه لا يرجع الكونت فاركاس الا ويقع الاضطراب

- ولماذا

- لاني اختطفت امراته

- ولماذا الست متزوجاً

- ابى الله ان يكون ذلك العقد قيداً ارتبط به على ان الفتاة المعقود لي عليها تكره التي اعشقها وتسعفني عليها ومتى نلت الاماني اطردها لتحل امرأتي محلها والا فاني اقتلها

- وما ذا يكون من امر الكونت ادريان

- ان في فينيسيا عديداً من الشجعان

- ولكن قليلين منهم يرغبون في ايذاء الكونت والذي ارى ايها

الصديق انك تقتحم اموراً خطيرة

— بل يسهل عليَّ اذا شئت ان اقلب ظهر المجن واعكس المنهاج الذي انحراه فاصالح الدوج

— فهل تتوعدني

قال الكونت ذلك واضعاً يده على حسامه

— لا لا انك لم تفقه معنى حديثي فاسمع لاقص عليك سرّاً هائلاً استودعه صدرك اذا اقسمت لي بحفظ اسراري

— وما هو القسم الذي تريده مني

— بشرف حسامك وعزة كلامك وصحة ايمانك المسيحي

ومما يضحك الثكلى ان الرجلين كانا يظنان بانفسهما متمسكين بشعائر الدين عاملين بواجبه مع ان اعمالهما تنبذهما عن طاعته مكاناً قصيا فكأنهما وسائر من ينسج على منوالهما من ارتكاب الموبقات والعمل بظهر الطاعة يحسبان الدين قائماً بطقوسه لا بفضائله وعلى هذا المبدإ استحلف كوزمو صاحبه بدينه فحلف الرجل له وبات يصغي لحكايته وهو كله مسامع فثغر اللص فاه وقال اجلس يا صديقي واعرني سماعك لاقص عليك حكاية فجلس الكونت وشرع كوزمو يتلو عليه حديث وقائعه منظلماً مما حسبه الماماً بشانه مبيناً اسباب سعيه في طلب الانتقام وكان فالاس يسمع وهو مندهش لهول وقائعه متعجب لفظائع اعماله وفي النهاية قال

— اما تدري انك اذا كشف امرك قتلتك الحكومة من غير شفقة

— لعل ذلك صحيح غير ان اسراري عندك وانك احسن مؤتمن عليها ولا اخشى خيانتك وافتضاحها

ثم غيرا موضوعها ونهض كلاهما يقصدان الذهاب الى مقمرة يجتمع اليها النبلاء فيلعبون فتاثم كوزمو حتى لم يكن في الامكان معرفته لان لثامه كان من صنع احد المهرة المشهورين

وما خرجا من الحجرة حتى برزت من مخبإٍ فيها تستره السجوف تلك الفتاة سليمة المتخذة تنكرها سبيلاً للشقاء ولخدمة زوجها الاثيم وعلى محياها شارة الغضب والكدر لما سمعت من فم كوزمو انه سينبذها او يقتلها متى قضى الدهر بنيل اربه من زليخة على انها اي سليمة في كل حياتها لم تمل اليه ولا شعرت بشيء من حبه ولكنها غارت من زليخة والغيرة عمياء وحسدتها على تمتعها بادريان وقد كانت افكارها تحوم حول حبه فاسعفت الشقي على نيل مراده من محسودتها وكان من امرها ما كان وهي مع كل ذلك لا تشعر بمحبة رفيقها بل ادت بها حوادث اجتماعها به الى الزواج فالارتضاء بنصيبها منه ومن نصب الحبائل لزليخة . ومع انها عهدت فيه محبة عدوتها لم تكن لتحسبه يعقد النية على نكران جميلها متى قضى لبانته منها . فعظم الامر عليها لدن سماعها وتصوّرت اعماله الشريرة فزادت امتعاضاً وانقباضاً وقالت في نفسها انه ليحتقرني ويهزء بي ويذكرني بالسوء ويتوعدني بالطرد وبالقتل تالله لافعلن ما يكيده

فرات ان تطلق سراح زليخة لتعود الى قصرها ولكن انى تمتعها بالحرية وهي العدوة اللدودة



الفصل الثامن والثلاثون

﴿ في الكنيسة ﴾

ولما بلغ الرجلان كوزمو وفالاس الشوارع وجداها مزدحمة بالناس ومثلها الساحات والقهاوي ومجتمعات الاهابين وابصرا القصر الاعظم وما جاوره وحاذاه من الصروح والدور كلها شعلة من نور فادهشهما النظر ولكن يا لحيرتهما ومزيد دهشتهما اذ سمعا الجرس الكبير يدق في تلك الساعة من الليل فلم يفهما المقصود لان مثل رناته حينئذٍ لا تدل الاَّ على موتٍ لدوج ومحال ن يقتل الرجل ولا علم للقاتلين به فشرعا يفكران في الامر ولكنهما قصرا عن بلوغ الغاية واما الشعب فاجفل لذلك ورسم الصليب الاقدس على وجوه كثيرين ووقفوا كالمبهوتين ينتظرون البيان وقد سكنت ضوضاؤهم بعد عجيجها

وكانت من عادة الكنيسة الكبرى الا تفتح بابها الاعظم الا في الحفلات الكبرى ففي تلك الساعة فتح الباب المذكور وسائر الابواب الاخرى فبرزت الكنيسة بحلة من النور البهي فدخلها الناس افواجاً يزحمون بعضهم بعضاً بالمناكب اما الكونت فالاس فانه لم يحفل بمن حول الكنيسة من الفرسان والمشاة والعسكر والدلماسيين والبحارة ولا بالغادات التي تميس كالبان وتلتفت كالغزلان فتخلب الالباب وتسبي النهى ولا برجال الاعمال من كل مثر جمع الطريف الى التالد وتاجر خاض البحار فحشد النضار وجوهري سطعت حجارة الكريمة من حانوته كأنها لكواكب نورًا الى غير هؤلاء من جماعات الناس على اختلاف مواضعهم

في العمران بل سار بقدم يحركها العجب وتدفع بها الخيلاء الى قلب الحشد ولا تسل عن اندهاشه وحيرته حين اذ رأى منصة في وسط الكنيسة عليها جثة رجل نحيل لكنه قديم الايام وعليه ملامح الوقار والاعتبار وفوقه راية الوطن رأى ذلك محتاراً وان الاهبة لحفلة الكبرى تامة العدة وابصر الدوج خاله عند المذبح الاكبر وهو عابس الوجه مقطب الحاجبين صامت عن الكلام حتى اذا غصت الكنيسة بالقوم نهض وقال بصوت جهوري دوى في انحاء الكنيسة حتى سمع من اولها الى اقصاها . اي هنا كل العجب ان الدوج دندالو العظيم الذي حسبناه جميعنا قد درج في اكفانه منذ سنين عدة تتوالت عليه الرحمات وتليت لاجل روحه صلوات الالوف هو هو بعينه لم يكن قد مات بل ان بعض الاسباب السياسية اقتضت ان ينزوي عن الاعمال وان يستتر عن العيون وفي هذا الصباح ظهر لي وجوده ومن ثمّ قضى امامي فامرت ان يدفن بما يستحق اسمه العظيم من التجلة والاعتبار .

ثم جلس فتنهد القوم الحضور وصعدوا الزفرات مندهشين مما كان على انهم امسوا كأن على رؤوسهم الطير وقد اخذتهم الحيرة وامسكوا حتى عن السؤال لتبيين الامر وحل هذا المعمى لان انتقاد اعمال حكومتهم لم يكن بالامر المستطاع في ذلك الزمن المملوء قتلاً وسجناً

اما الجثة فكانت محاطة بالشموع المضيئة زيادة عما في الكنيسة من الانوار الساطعة وبدأت من ثم بعض الطقوس الكاثوليكية

وفيما القوم حزانى وهم آخذون بترتيل الاناشيد الروحية خرج فالاس ورفيقه الخبيث من بينهم حتى اذا صارا على بعد مال الاول

فلاس ورفيقه الخبيث من بينهم حتى اذا صارا على بعد مال الاول الى الآخر قائلاً — لا بد ان نرى في ذلك لان الامير الشيخ الذي يظن بنفسه حاكماً في فينيسيا لم يكن ليجسر على ما فعل لو لم يستنصر براي ندوة النبلاء فان فعل فلسوف يتدحرج راسه من على السلم الكبير

- الا ان هذا العمل يجعله محبوباً من الناس

— سنرى

وكانا قد بلغا عندئذٍ سوقاً ضئيل النور ووقفا عند بيت كئيب المنظر حتى اذا فتح الباب دخلا فولجا القاعات الفاخرة التي سددا صوبها خطواتهما من منذ خرجا من قصر مالاسبينا فوجدا فيه كل ما تشتهي الاعين وتلذ النفوس من بدائع فينيسيا ولا غرابة لان نوادي القمار كانت في تلك الاونة من غرائب المناظر وادهشها بحيث لا تقاس بامثالها من نوادي العصر بهجة واتقاناً الا ان الشبه بينهما قريب بل كأنها اياها اتقاناً في المعصية والشرور ولا بدع فكلا الناديين القديم والحديث يحويان المراقص بخلاعاتها ويطربان المشاق بالاغاني الغرامية ثم يفسحان مجالاً لمداعبة اهل الغرام وناهيك بما وراء ذلك من الذهاب الى حانة النادي حيث تدور الكؤوس وتؤكل الحلوى ولا يعدم العاشقان خلوة

فلما دخل الكونت فالاس الى القاعة الكبرى نظر الى الموجودين فرآهم منكبين على الميسر لا يلوون على شيء فاشار لمن اراد منهم اشارة لا يدركها الا ذووها وسبقهم الى حجرة منفردة قائمة في احدى زوايا الدار فلحقه الى هنالك نبلان من زعماء المؤامرة فاسر اليهما ما سمع فغضب

احدهما وقال — ان في ذلك الماماً بشان ندوة النبلاء ناهيك بالامر ان داندالو لا بد ان يكون قد قص حكايته من اولها

— لكن الدوج يحرص على ذاته فيكتم السرّ مرغماً لان اباحة اسرار الحكومة جناية عقابها الموت ايا كان الجاني

— الا ان ذلك لا يجب ان يستفزنا للاضراب عن التحفظ والتحرز لانه شاع بين الناس اقوال مبهمة مؤداها وقوع القلق بين البحارة ونهوض الدلماسيين بما لا تحمد عقباه وكلا الامرين يدلان على ان وراء الاكمة ما وراءها مما يدل على الخيانة

— وكأن جواسيسنا صم بكم فهم لا يفهمون على ان الاهتمام بسرعة العمل ضربة لازب . قال كوزمو — صدقت واذا اخذنا بمؤامرتنا وقيل للدوج عما توقع يتخذ بعض الوسائل الفعالة لحصد الرؤوس

— لا شك ولا ريب في اقتداره ولذلك نرى الضرورة قاضية علينا بالتعجيل ولهذا يتعين علينا عقد الاجتماع النهائي مساء غدٍ

فقرّ على ذلك قرارهم ثم عادوا الى القاعة لئلا تخدم الظنون وما زالوا حتى انصرفوا فعاد كوزمو الى قصره مفكرًا وفي نفسه عظيم الريب من نجاحهم خائفاً من عواقب اخفاق المسعى ومحتسباً من وقوعهِ بين يدي الدوج فلا يرى ثمة رحمة ولا إشفاقاً فخطر له ان يذهب لينادي الدوج ويسلم نفسه ثم يبوح بما اضمر المؤتمرون فيلقى من الامير عفوًا ولكن عارض هذا الراي امران احدهما اضطراره بعد ذلك الى ارجاع زليخة لزوجها سليمة من كل ضرر مصونة من الاهانة والثاني ان يقلع بتة عن محاولة ايذاء الكونت فاركاس وكلا الامرين صعب عليه

وكان يفكر في هذا حين اذ بلغ من طريقه الى موضع نقل فيه اقدام السابلة في الليل البهيم لانفراده وتعرضه لريح الجنوب وهي هنالك حارة المهب لا يستحب تنسمها لانها تمرّ فوق الالب والرمال التي عند سفحه وكان ذلك الحي قريباً من مدفن الذين تأبى الكنيسة اجازة دفنهم بين ابنائها الصادقين . فمر كوزمو بالموضع ابتغاء الاستدارة به وبكثيب من الرمال التي قذفها الجون ليرى القارب المعد لفراره النهائي اذا مست الحاجة فلما قضى اللبانة وسرّ بوجود القارب هنالك احتياطاً واحترازًا من الطارئات مال ليعود على عقبه فراى ان في اثره رجلاً ومع ان تنكر كوزمو كان دقيقاً لا يستطاع معرفته منه فانه امتعض في داخله واذا بالرجل الذي لقيه في لباس اهل الجندية ولكنه ماثم فقال يخاطب اللص — كأنك تفتش على من كان من حرفتي

— لا اعلم ما حرفتك فهل انت حفار قبور اليهود

— احتفر القبور بهذا الخنجر الذي لم يذق احد طعمه الا قضى

— اذًا انت

— انا تدالدو الشجاع واعمل لوحدي والذين يريدون مني شيئاً يطلبونني من هذا المكان

— انا لا اعمل مع غريب

— ذلك اليك لاني لا اجبر احدًا على استخدامي (ثم مال ليذهب)

— قف وعدني انك تقتل الكونت ماركس فاسومك الاجور

فاشار الرجل براسه ايجاباً وبعد المساومة تمّ الاتفاق ودفع بعض

المال سلفاً ثم افترق اللص والشجاع وكل منهما راضٍ من الآخر ذاك لاجرته وهذا لنوال اربه

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ الدوج والمشتكون عليه ﴾

ان اعلان الدوج بما كان من امر سالفه الدوج داندالو الأعمى صاحب الاسم العطر عند البنادقة مما ادهش الأُمة وكدرهم لانهم كانوا يحسبون ندوة النبلاء قد قضت عليه منذ السنين الطوال حسداً وبغياً ولم يدروا انه بقي محبوساً يقاسي انواع العذاب وضروب البلاء ولم يكن الجهل بحاله منحصراً في عامة الامة فقط بل تناول القسم الاكبر من الثلثمائة نبيل المؤلفين للندوة العليا

وقصارى القول فيه ان اسمه الجليل كان محبباً للامة جميعاً لانه تولى فيها فمال لنصرة الضعفاء وايد حقوق العامة فادعوا بقتله وسكنت بعد ذلك ضوضاء افكارهم شان البشر من النسيان اما مجلس العشرة فكانوا جميعاً عارفين بامره مدركين سرّ سجنه يطلبون على ممر الأيام ان يعلموا حقيقة حاله وهو معذب في محبسه فلما جهر الدوج بما كان من قضيته وتحدث الناس بها وتصعرت خدود الاحرار الصادقين واقشعرت ابدان اهل الحمية والغيرة راى العشرة نبلاء ان يتحروا البحث لاستطلاع السر الموجب لكل هذا الاضطراب فبعثوا يقولون للدوج ان النبلاء العشرة يلتمسون من الدوج التكرم بالاجتماع بهم

فلما اتصلت به رسالتهم علم انهم بعثوا بها امرًا مبرم القضاء فاجابهم انه يقتبلهم بالحال فابوا الظهور نهارًا لان الليل يواري حضناً وانهم ليرون في السر ما لا يراه اهل النور ولذلك بعثوا يقولون للدوج انهم يدخلون عليه في قاعة السر عند نصف الليل فادرك الامير من ذلك انه سيشتكى عليه فاتخذ الحيطة لما يقع من الامور الجسام على انه اسف كثيرًا لفراق الكونت فاركاس في ابان الاضطرار اليه نصيحة وحساماً ولكنه قال في نفسه انه اذا ضايقه النبلاء العشرة يحدث من جراء ذلك احد امرين اما اخذهم جميعاً بطائلة جرائمهم واما وقوعه بين ايديهم عرضة لانتقامهم المريع وليس نكيرًا ان اخذهم بآثامهم اوقع في نفسه من ذهابه قتلاً وبقاء وطنه يقاسي في حكمهم ضروب الاحن والمصائب

فلما كانت الساعة الثامنة من ليلة اجتماع العشرة به جلس الدوج الى شرذمة من الرجال لو رآهم النبلاء لارتاعوا لان بينهم بوناقي والغريب الذي لقي كوزمو عند المقبرة وغيرهما جماعة من احداث الدلماسيين اصحاب المقامات في العسكر وعديد من رجال الصناعة البحرية وبعض اهل الحرف والصيادين وكان اجتماعهم غريباً لاختلاف عناصرهم وتباين مناهجهم في الحياة ولكنهم من اهل الجد والعزيمة ورجال العمل الذين تتالف منهم معظم الامة وكان منظرهم مهيباً عند قيامهم في حضرة الدوج على انهم عرفوا ان مهمتهم اذا خابت اودت برؤوسهم اجمعين فلم يتهيبوا الخطر المحدق بهم لان الغاية الحميدة كانت نصب عيونهم ولطالما جد القوم في جمع حشدهم حتى فازوا ولو شعر المضادون بهم لأودى ذلك الشعور بجميع اهل المؤامرة الى الهلاك

ولما تمّ حشدهم وانتظم عقدهم قام الدوج فيهم خطيباً بصوت رزين يدل على عظم الخطر وهول الموقف وقال

اجتمعنا هنا ايها الاحباء للبحث في المسألة المهمة ذلك ان كثيرين من النبلاء الثلثمائة ومن سائر سراة المملكة قد ائتمروا ان يزيدوا في التضييق على حرية الامة بان يتخلصوا مني اما بالقتل او بارتكاب ما فعلوا بالدوج داندالو الاسبق من الطريقة الوحشية غير مراعين عهد فضائله ولا ناظرين الى كمالاته بل سجنوه في محابسهم مدة طويلة واني لأزيدنكم برهاناً على اساءتهم انهم لم يطلعوني على هذه المظلمة مع اني رئيس حكومتهم واليّ يقتضي ان يكون مرجع امورهم فالمسألة الآن مهمة وهي من الضرورة ان يزاد العنت على الامة وان تسحق سحقاً وهل يصح السكوت عن سلب حريتنا وتعطيل تجارتنا وكساد صناعتنا حباً بمطامع فئة قليلة من الناس

فصرخ الحضور قائلين لا لا

عند ذلك جلس الدوج فنهض بوناتي وجال بين الحضور من الباعة والصناع ثم وقف وقال انه يخاطب الحشد باسم الذين انابوه ليعرضوا قيامهم على نصرة الدوج ضد النبلاء ثم قال الغريب انه ياتي بمئة رجل لمعاضدة الامير عند الحاجة وقال ضباط الدلماسيين ان الجند متأهب للثورة ولكنهم يرون من الضرورة ان يفصل رئيس العسكر وان يعهد بالامارة لغير واحد من رجال الدوج ومثل ذلك نطق نواب سائر الحرف والعملة فكان نتاج هذا كله ان الامة ستكون مع اميرها يداً واحدة ضد الاعيان وللحال اعطيت لكل منهم كلمة المرور

واتفقوا على وسائل يتخذونها في تبليغ الرسائل وانصرفوا من الابواب السرية واحداً بعد آخر تجنباً لظنون الجواسيس

فلما خلا الدوج بيوناتي والغريب قال لهما ان من الخطر الاسترسال بالتسليم لكل الناس فاءنَّ كلمة تذهب بدمي هدراً

- لا يسفح ان شاء الله الا دم اعداء الوطن الذين لا يلقون منا رحمة

فقال الغريب - ابى الله ان يلقوها

وفيما هم يتذاكرون دخل الحضرة خادم يعلن مجيء بيانكا فدخلت وراءه وهي بحالة الاضطراب والقلق فقال لها ابوها

- لعل ما جاء بك الى قاعة الامارة داعية غير ذات بال

- ان الكونتة فاركاس احدى اميرات البنادقة واعز بنات الحكومة قد اخذت من قصرها

- يالتعاستها

- ابتاه انها بنية مظلومة مهانة على ان ظالمها الذي صرف العمر في ملاحقتها قد عاد الآن الى العمل اذ علمنا ان اللص كوزمو بين ظهرانينا لا تناله يد حكومتنا المتفاخرة

- وهل ذلك في الامكان

- فاجاب المثم - لقد صدقت الاميرة يا سيدي وامس كلمته

- ولم لم تلقِ القبض عليه

- لان له اصدقاء من ذوي الكلمة النافذة والامر المطاع ومع ذلك فانه واحد من المؤتمرين على سموكم وقد خطر لنا ان نفسح له

مجالاً ليتوهم انه فائز بالنجاح

– ولكن ما العمل بالكونتة

– سنجدها ا.ا زوجها الكريم سيعود هذه الليلة وانه ليأخذه الغضب والحنق اذا لم يرها سليمة

– اني اسلّم الامر اليكما ايها الصديقان فاذا لم تنجح بقية مساعينا فلا اقل من ان تقبضوا على الشقي الذي ينغص عيشنا ويرتكب الآثام على مقربة منا فاذا اعتقلتموه لا اترك له سلاماً ولا املاً بالنجاة فانحنى الرجلان وخرجا تاركين الدوج وابنته لوحدهما وكان الدوج يومئذٍ في السبعين من عمره ولكن الشباب ظاهر في محياه واعماله راغماً واجب سنه وما طال القيام مع ابنته لان تاهبه للدفاع عن نفسه دعاه الى صرفها عنه

وكانت الغرف السرية مؤلفة من عدة حجر متلاصقة على انها على صغرها في غاية الزخرفة والرونق ولكنها لا تفتح الا نادرا والقاعة التي يستقبل الوفود فيها تشرف على احدى باحات القصر ولها مغالق من حديد فانام الدوج هنالك حتى قرعت الساعة ما يعادل الثانية عشرة فبدأ النبلاء العشرة يفدون واحدا بعد آخر وكلهم صامتون وكانوا لابسين ثيابهم الفاخرة وسافرين عن وجوهم ثم جاء الكاتب وهو رجل من خدام الجائرين يماثلهم ظلماً وعدوانا وخيلاء وعجبا وفيه مكرٌ ودهاء ونميمة وخديعة ولذلك تهيبه الناس ارتعاداً من استيائه منهم فلما دخل جاس في منصته وامامه الحبر والاقلام والقرطاس

فلما انتظم عقدهم بسم الامير لهم وقال — اي شيء اوجب عقد

هذا الديوان فاجابه احدهم — للسؤال عن اشياء ذات فائدة للحكومة اذا كنتم سموكم .... فانحنى الدوج ايجاباً قبل اتمام العبارة

– فسموكم تعرفون انه ليس من العادة ولا من السداد اظهار جثة دوج متوفي مع انه مخلوع منذ مدة طويلة وذلك من غير استشارة المشيرين المعتادين الذين نصبوا ليحولوا دون اظهار الاغلاط من قبل الفرد المتولي فكان تنصيبهم من حكمة الدولة لحفظ بيضتها

ان داندالو الأعمى صديق والدي ومرشدي في حداثتي جاءني بالامس صباحاً وقص عليّ وقائع ايامه وما لحق به من القسوة والجفاء والعذاب المبرح بمدى السنين الطول التي قضاها في السجن واذ كان يقص حكايته متهيجاً سقط لى العوراء فمات من ضعفه وتأثره

فقال فالاس — مات من غير ان يفصح عن الذرائع التي اتخذها في النجاة من سجنه لذي اودعته فيه الحكومة لغاية سديدة وحكمة عجيبة

– لم يفسح الوقت بذلك بل قضى حين اذ كان يصف السجن الهائل الذي كان فيه

– وكيف عرفته وهلاَّ عرَّفك احد به

— لم يعرفني به احد بل جاءني خادم يقول ان شحاذاً اعمى على الباب يطلب الاذن بالدخول عليّ لانه يعرفني منذ مدة طويلة وبما انى لا أرفض مثول احد لدي ولو كان من ادنى الناس اجزته الوقوف لدي فما كاد يفتح فمه حتى عرفته

— وهل لم يخطر لسموكم ببال انكم متى وقعت حادثة سياسية كهذه تمس شرف الحكومة ومصالحها الخاصة تستدعون حسب العادة المألوفة

مجلس العشرة او المفتشين الثلاثة للمذاكرة في الامر

فعظم الامر على الدوج ورأى ان النبلاء يضايقونه ويريدون به سوءًا وقد اهتاج من تصرفهم فنهض على اقدامه وصاح بملء صوته قائلاً

— كيف ادعوكم وانتم الذين سجنتموه وقتلتموه ابى الله ذلك لاني رغبت في ان يموت ذلك الشيخ بالسلام والطمأنينة بعد طول العناء وان أفيه حقه من التعظيم لانال نصيبي من الاحترام بعد وفاتي

فنهض العشرة لنهوضه وحدجوه بابصارهم لكن الدوج عاد تاثره فتقلص وكاد يغمى عليه من هول الموقف فوقع على كرسيه

وتكأكأ العشرة على بعضهم هنيهة يتذاكرون ثم قالوا

— ان كلام سموكم الاخير لم يبق لنا من مجالٍ للكلام ولا من سبب للبقاء في حضرتكم ومتى صرتم الى حال الهدو والسكينة نعود الى البحث في هذا الشان اما الآن فانا نستودعكم الله

وكان الناطق بهذا الوداع هو الكونت فلاس وهيئته حينئذٍ تظهر السكينة وتخفي الكمد والاضطراب فلم يجب الدوج بشيء ولا ابدى النبلاء قولاً وانما خرجوا بملء التؤدة والهدو كما دخلوا تاركين الدوج لوحده متأثرًا من منهاجهم حتى ظل كذلك مدى بضع دقائق لا يتحرك بل كأنه سمر في كرسيه ولكن ما لبث ان عاودته نفسه فنهض وتنفس الصعداء يريد الذهاب الى حجره واذا به قد لقي في الحجرة الخارجية بعض الشرطة من جماعة النبلاء العشرة فاحاطوا به وداروا نحوه حراب بنادقهم فعرف انهم اعتقلوه بامر الجائرين فقطب حاجبيه استخفافا وسأل الضابط عن تلك الجراءة وسببها

— كذا امرني النبلاء المحترمون موجبين على سموكم البقاء في الحجرة الملكية من غير ان تقتدروا على الدخول الى غرفكم حتى يتسنى لكم الاجتماع بهم ثانية

فلما سمع الدوج ذلك عرف ان المداولة معهم والممانعة وامثالها لا تجدي نفعاً لانه كان يعلم ان المامور لا يستطيع المخالفة ولو عمل على غير ارادته فاذعن للامر غير متردد ولكنه قال

- ابعثوا اليَّ بخادمي جيروم لاني في حاجة الى الراحة ولم اذق طعاماً بعد

ولم يمضِ الا دقائق معدودة حتى جاء الخادم وهو رجل قضى في خدمة الدوج ايامه حتى شابت ناصيته واتى معه بادوات المنامة والطعام وبعد اذ بسط المائدة ووضع عليها الخبز والخمر فخاطبه الدوج قائلاً

— اي جيروم اراك خدمتني اربعين عاماً وقد عاملتك في غضونها كصديق وليس كأجير

فانحنى الرجل تعظيماً وتصديقاً على كلامه

-- فهل اقتدر على تامينك على حياتي

فوضع جيروم يده على قلبه

— اذهب اذاً وادع بوناتي واخبره ما كان وانه ان لم يعمل كل شيء في مدى ثلاث ايام فان رأسي يتدحرج من على السلم الاكبر

فنظر جيروم الى سيده مكتئباً حزيناً ولكنه لم ينطق بكلمة على ان هذا السكوت كان في الدلالة على وقوع الكلام معه موقع الامر في الطبع ولكن لا يعرف منهاجه لا الخبير به واما الدوج فقد عرفه يكره الكلام الا وقت الحاجة

وقضى الخدمة في حجرة مولاه ولم يبق له حاجة بل لبث حتى دثره على السرير الرسمي الاكبر لان من عادتهم ان يكون في القاعة الملكية سرير معد دائماً فعليه نام الدوج تلك الليلة غير نائل الراحة المقصودة واما الخادم فلما اراد الخروج نظر الشرطة ذلك عليه قائلين ان الدخول على الامير شيء ولكن الخروج شيء آخر وان من الضرورة بقاؤه لخدمة مولاه فشكا جيروم من الامر وقال لهم ويحكم من يصنع الشوكولاتة لسيدي الامير عند طلبها

— ان في دار سموه خداما سواك

— لكن ما من واحد منهم يعرف رغبة الدوج مثلي ثم ادار ظهره غير متوقع منهم جوابا بل اغلق الباب وقهقه عليهم ضاحكا لانه يعرف القصر ومواضع سره معرفة لا يدركها سواه حتى ولا لدوج ولذلك فرك يديه ومال صوب احدى الزوايا حيث هنالك مواضع كانت تتخذ في الاحايين لقيام الارصاد فدخل الدكة وفتح فيها بابا سريا يسار منه في سلم متعرج الى الطوابق السفلى وبعد بضع دقائق بلغ المطبخ وشرع يذاكر احد صغار الخدمة مذاكرة سرية فسار الفتى الى قاعة الخدم ولحسن الحظ وجد بوناتي هنالك يتناول الطعام بصحبة غيره من الخدم والاتباع فكفت الشجاع من الفتى اشارة واحدة اعقبها نهوض بوناتي وذهابه الى المطبخ حيث لقي جيروم فاطلعه هذا على اعتقال سيده وما وراء ذلك من الكدر واليأس غير ان الشجاع كان ممن لا يهولهم الموقف ولو خطيرا فلتفت الى الخادم وقال . بلغ صاحب السمو ان يسر ويطرب اذ سنسمعه اخبارنا عما قليل وندوة النبلاء صارت لا

تجسر على اتيان عمل بدون محاكمة لان حجارة فينيسيا تستغيث من الدم المهراق ظلما وعدوانا

وفي الصباح لما دعا الدوج بالقوم لاستحضار طعامه جاء جيروم القاعة الملكية وفي صحبته عديد من الخدم يحملون الآنية فأدهش الشرطة واسقط بايديهم اذ عهدوا جيروم مسجونا فكيف به وقد جاءهم مطلقاً على انهم لم يفوهوا ببنت شفة لان قائدهم كان قد تبدل واومأ جيروم اليهم بالسكوت فاذعنوا خوفا على انفسهم وحذرا من القصاص

الفصل الاربعون

﴿ الزواج ﴾

لم تكن حوادث الفصل السابق كل وقائع تلك الاونة بل جرى ثمة اشياء اخرى من مسببات العواقب الآتي وصفها

ذلك ان الكونت فالاس لما خرج من القاعة التي اعتقل بها الدوج اتجه توًا نحو حجرة ابنته الاميرة بيانكا ولم يكن ثمة من مانع لدخوله دائمًا نظرا لمقامه السياسي فاقتبلته الاميرة بملء الابهة كاقتبال الملكات لذويهن وكانت ساعتئذٍ جالسة على سرير وحولها صفان من العذارى وهن يتحدثن باحتفاء زائد فلما رات الكونت داخلا تحفزت للوقوف له ثم جلست غير متمة وقفتها فبسم الرجل لها وجلس على مقربة منها فقالت — انها لساعة متاخرة من الليل فهل ترغب في الاجتماع بوالدي

- كلا اذ جئت من عنده الساعة
- اذًا ما جاء بك الى هنا
- تركت اباك اسيرًا سجيناً لانه اهان الدولة اهانة خاطربها بحياته
فنهضت بيانكا تريد الاسراع للانضمام الى ابيها
- سكني روعك ايها الغادة الحسناء لان الرجل اياً كان ومهما كانت مكانته من الدولة لا يستطاع الاجتماع به بعد اذ يشكى وانك اذا اصغيت لكلماتي تؤدينه خدمة عظمى ولكن مكالمتنا خصوصية فلتخرج اترابك من حضرتك

فامرت بيانكا بما اراد وتنهدت ثم جلست موطدة عزمها على ان تؤدي ما في وسعها من الخدمة لانقاذ ابيها فقال الكونت

- انك يا بيانكا تعلمين اني احبك منذ زمن طويل ومع اني في الاربعين من عمري لم يخط الشيب مفرقي وترينني شابا جميلاً غنيا ومع ذلك فلا الاقي منك الا الصدود والجفاء والرفض فلماذا
- لاني لم احبك ولا اقدر ان احبك
- ان امثالنا من البشر يعقدون الزواج بحسب التناسب والموافقة وليس لمراعاة العواطف على اني ملكتك وابي وحنث الآن اطالبك بعقد الصك الرسمي لاحراز ذلك الملك اريد بهذا ان يعقد زواجنا
- وكيف تريد ذلك مني بعد ما اسمعتنيه
- بيانكا بيانكا اعيريني سماعك وبعد ذلك احكمي كيفما شئت فان اباك قد مس الدولة وآذاها كثيرًا اذ صدق رواية شيخ خرفان ادعى انه داندالو الدوج المشهور الذي قضى منذ اجل بعيد

وقد اضطرنا الحال ان ندفن ذيالك الشيخ الدعيّ بما يستدعيه مقامه الموهوم من العزة والابهة مع انه لو سئل النبلاء في امره لقذفوا شلوه في البحر

– اتفعلون ذلك بجثة من كان دوجاً عظيماً

– انما يعمل هذا باولئك الذين يعاودون الظهور كأنهم ارواح على اني لم آت لابحث واياك في الشؤون السياسية وانما لأقول لك ان اباك تحت المحاكمة ولا بد ان تكون النتيجة قتله بضرب العنق ما لم يفز بعضد قوي

– وهل ليس له بين العظماء صديق

– قلّ بين الناس من يناوئ حكومتنا ويجهر الاصدقاء بنصرته غير انك لا تجهلين ان الصهر يحرص على شان حميه ويتهالك في الذود عنه

– اتسألني ان اتزوج بك

– بلى وذلك قبل ان يبزغ الصباح

– يعسر عليّ ذلك لما فيه من الاجحاف بالحق واللياقة معاً

فنهض مقطب الحاجبين وقال

– اذًا يقتل ابوك

– يا الهي خذ بيدي وصن حياة والدي ثم التفتت اليه قائلة وهل تنقذه اذا رضيت بك بعلاً

– بلى انقذه

– وانا نزوج بك متى شئت واينما احببت

– الآن

وكانت عبارته بصوت عال فدخل الحضرة رئيس اساقفة فينيسيا وعديد من الرهبان و بضعة من النبلاء شهودًا للعقد كأن الشقي اعدهم لما فعل اما بيانكا فانها ارتعدت جزعاً ومالت الى فالاس قائلة اريد ان اقول لك كلمة واحدة الا وهي ان مثل هذا لا يليق بحفلة زواج ابنة الدوج بل حسبك اني اعطيتك يدي ولكني ابقى في حجرتي حتى ازف اليك علناً بحضور ابي

— ايصح زواجنا مرتين

— بل فلنحسب هذا عقد خطبة فاذا ابيت ذلك فاني ارفض طلبك

قالت ذلك والدمع ملء عينيها على انها تجلدت

واذ كان فالاس محتالا حداعاً اذعن لها في ظاهر الامر وقال

— فليكن ما تريدين من بقائك هنا حتى يطلق سراح ابيك وينعم علينا ببركته ويعلن الزواج رسماً

— اذًا اعطيك يدي

فاشار الكونت الى الكهنة فتقدموا منها ودخل الموضع صفان من بنات بعض النبلاء الذين اخنى الدهر على يسارهم فلاذوا باكناف العسر والمسكنة ومن ثم بدأت الصلاة وبعد انتهائها اصبح الكونت وبيانكا مرتبطين بالزواج الكنسي الذي لا انفصام لعروته وخرج القوم من الحضرة فتقدم فالاس من زوجته وقبض على يدها الباردة من القهر والكدر وقال

استودعك الله ايتها العروس العزيزة فعساك تفكرين فيّ وانت في حجرتك وتحلمين بزوجك في منامك حتى يتسنى لنا الاجتماع السعيد في صرحي المعدلك

فسكتت عن الجواب ولكنها قالت في نفسها القبر المجاري قواك قصرك واذ تركها الشقي لوحدها وذهب كان يردد في خاطره انها صارت لي زوجة والضرورة تقضي باسقاط ابيها لان كل ساعة يقضيها في الحياة تحفني بالمكاره والاخطار فلا يجب ان يمضي الاسبوع قبل ان يقضى عليه لئلا اسبقه الى الفناء

كذا كان يقول في نفسه ولكن الناس في التفكير والله في التدبير او كأن الدهر سار بالناس على حد قول الشاعر

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

ومن غريب حوادث الحكاية ان هذا الزواج لم يكن فذًّا في نوعه وزمنه بل جرى في البلدة والوقت حادث آخر شبيه بهذا في بعض ظروفه ذلك ان اللص كوزمو كان معقودًا له عقد الزواج على سليمة بنت الامير صوتو كما مرّ بنا ومع ذلك فان نفسه الخبيثة كانت تحدثه باغتصاب زليخة والزامها الزواج به ولئن كانت حليلة الكونت فركاس معتذرًا لنفسه بان زواجه بسليمة كان اضطرارا وقسرًا غير ان من كان على شاكلته وقد ادمن على اقتراف الجرائم والآثام يكاد لا يرى من نفسه حاجة لقيام العذر لدى ضميره ولهذا اضمر السوء عاقدًا النية الرديئة على تمام بغيته متى سقط الدوج الحالي وتبوأ المنصة صديقه فالاس حيث يتم له الوعد بارجاعه الى شرفه المفقود واملاكه المحجوزة والقابه المسلوبة فيصبح قديرًا على ما شاء ويومئذٍ يغتصب زليخة على الارتضاء به بعلا دون حليلها فاركاس فيمنحها لقبه الاميري ويتيه فخرًا بما تبر من ذيون العظمة حين اذ تصبح دوقة مالاسبينا على ان افكار

السوء التي طرأت على قلبه لم تحل حتى عارضته في سبيل نيله بوجود شخصين يحولان حال سلامتها دون مراده فعقد العزيمة على ان يودي بهما فيزول المانع وتتمهد العقاب و ينال على ظنه غايات الآمال وهكذا نوى على قتل فاركاس وسليمة واما مراته سليمة فان قتلها ميسور له في اي ساعة شاءها من غير ان يوجس منها خيفة الاكتشاف بخلاف مقتل ادريان فان فيه كل الصعوبة على ان ارجاع زليخة الى زوجها قبل قتله لم يخطر له ببال بل نوى ان يبذل كلما عزّ وهان في ذلك السبيل

وكانت هذه افكاره وهواجس خاطره وهو سائر نحو محبس اسيرته فرآها جالسة على سريرها ممتقعة اللون اصفراراً وعلى محياها عبوسة الحزين المضطرب البال على انها كانت ساعتئذٍ تفكر في ادريان حبيبها وبما كان لها من سعادة قربه ونعيم حبه مما راته اشرف على الزوال وبما شهدت من قسوة اللص وحسده اللذين حملاه على اختطافها قسرًا وكأن هاتيك الخواطر قد رسمت باحرف من نور على محياها ومجمل هيئتها حتى ان كوزمو عند دخوله عليها دنا منها متمهلاً وجلس قريبا اليها واسرَّ في اذنها كلاماً فاجفلت مرتاعة وصاحت قائلة - من يكلمني

- انك لتعرفينني حق المعرفة يا زليخة ولكنني جئت اليك في هذا الحين لاحدثك باللطف والانس فانك الآن في قبضة يدي ولطالما كنت كذلك بحق ثابت لي ومنذ كنت طفلة عقدت العزيمة على ان اتخذك لي زوجة واوشكت ان اتم ذلك لو لم يات ذيالك المنعم البندقي و يسرقك من بين يدي فيا بنية اما تذكرين يوماً كنت

فيه تميلين لسماع نغمات البحر متى تعالت امواجه وتكسرت على الصخر او على المركب فان كان لم يزل لك رغبة فان للقرصان مركباً آخر ينشر شراعه بضوء القمر ويتخذ من النسيم مهباً فيمخر البحر ذهابا عن فينيسيا الجائرة ولا نعود اليها

– انسيت اني متزوجة وانك كذلك

– وماذا يهمنا من ذلك كله فان الحب يتغلب على الصعاب ويستخف بالعقاب ولا بد من ذلك ومن ان تصيري لي زوجة فاذا عدت بك الى الحب اذكرك بساعات الطفولة وما كان فيها من السعد والرغد اذ كنت تحبينني

– ايام كنت اظنك لي اباً ولكن لما عرفت ان ذلك خطأ انتفت المحبة من فكري واعتضت عن الميل الى البحر بالعاطفة الى البر وملأ قلبي حب رجل آخر وهئنذا ابنة رجل لم يكن لصاً وزوجة رجل من السراة الاعيان

– يا لك من واهمة فاني اقتدر ان ايقظك من حلم السعادة الذي تحلمين ولقد سبق فقلت لك انك امة وها انذا الآن قادر على اثبات قولي فاختاري ما تشائين اما الذهاب معي في القارب الذي ينتظرنا بحيث اكون لك سيداً وزعيماً فترين السعادة منك دانية قطوفها واما اذا ابيت ذلك فانك لتختارين لك ولزوجك نصيباً هائلاً

– ارضى بكل شيء دون الالمام بشرف زوجي النبيل

– فاسمعي اذاً حديثي وعي كلماتي فان منذ بضع سنوات اذ لم تكوني قد ولدتك امك بعد كان في فينيسيا فتى من النبلاء

سافر الى قبرس وعاد منها بامرأة تشبهك حسناً وجمالاً فادعى انها من بنات النبلاء الذين عضهم الدهر بنابه فنبا بهم وطنهم ولكن ما عتم ان اخذ الفتى النبيل من قصره تحت جنح الدجى وزج في حبس التفتيش الصارم وكذا كان نصيب امرأته البديعة وليس لها ذنب الا انها من الاماء اللواتي حرّم على النبلاء الاحرار التزوج بهن في شرعنا وقد عرف احد الاصدقاء بسرها فاباحه وكان من امرها ما كان جزاء خرقها حرمة القانون. فاذكري اذاً ان سنتنا تصرح انه اذا تزوج احد النبلاء بامة يتغير بها الدم البندقي الشريف فيحكم على الرجل بالموت وعلى الامة واولادها اذا كانت قد رزقت منه ثمرة بان يطرحوا في الترعة ليموتوا غرقاً

— ويك ايها العفريت لماذا تقصد ارهابي

— انك امة ووالله اذا ابيت اجابتي ومضى عليك يومان ولم تسأليني الصفح لاخبرن به الحكومة فهلا تذهبين معي الى وطني في الجزيرة

فجلست زليخة صامتة من غير حراك لا تستطيع ان تبدي جواباً فقال الخبيث

— ومن ثم فان الاوراق في يدي ولا يصعب علي اثبات التهمة وازيد اني عند ذلك اختطفك من بين ايدي المنية ولكني لا اختطفه

— غير ان اهل فينيسيا كلهم لا يصدقوك لان من كان مثلك منبوذاً من الحكومة لا يجسر على الشكوى

— اطرح بالشكوى والادلة الى فم الاسد

— وانا اعيدها اليك خائبة واعلن امرك شاكية من وجودك هنا فالقي على راسك شرور اعمالك واكتب على جبينك حوادث شقائك واحض القضاة على الاقتصاص منك

— زليخة زليخة ابقي عليك الى الغد ليلاً والا فاسلمك الى مجلس النبلاء لان الشكوى قد تقدمت فتفكري بالامر لاني اريد ان اتخذ لي زوجة راضية من زواجي

— وانا اتمسك بملء قرتي بعنق زوجي وافضل ان اموت الف مرة بين يديه من ان اطيع لك قولاً ايها اللئيم الخبيث

— فليكن ما اردت وليسقط دمك على راسك

قال ذلك غاضباً وخرج واوصد الباب السري وراءه

وحسبنا من امر اللص انه احتدم غضباً من اصرار زليخة وعقد العزم على تتميم وعيده اذا لم ترضخ لارادته على ان زوجها اذا نجا من ضربة الشجاع الذي دسه عليه بالامس لا ينجو من شكواه لدى النبلاء المتوقعين له شراً وفي حسبانه ان هؤلاء يعطونه زليخة بعد مقتل بعلها

واذ خرج من حضرتها دخل حجرته فرأى سليمة فيها تلاعب اطراف ثيابها الفاخرة فجلس الى جانبها يريد الانتعاش بشيء من الشراب فوجد المرأة مقطبة الحواجب عابسة صامتة ففكر اللص بحالها وخشيها لئلا تكون قد اطلعت على شيء من السر فتحذر وحترس لانه قال في نفسه ان هذه المرأة اذا اوجست مني شراً ابلتني بما لا يطاق من الأذى لانه عرف احتيالها وخداعها وانها ذات مكر ودهاء

واقام معها يدير من يرغب حتى اكل شيئاً وشرب كثيرًا

ثم اعتذر لسليمة وانه لا يلبث ان يعود اليها اذ نوى التخطر في ساحة سان مارك لعله يلتقي فيها بالشجاع الذي وعده بقتل الكونت فاركاس فخرج من امام امرأته من باب سري وسار الى موضع قصده فرأى الرجل الذي اراده متكئاً على احد العمد اذ كان على يده عصابة مخصوصة ليعرفه الرجل منها فلما وقف به وهو ظاهر بمظاهر التجار قال للشجاع مستفهما

- ما وراءك من الاخبار

- لا شيء عن الكونت فاركاس بل ان في المدينة اشاعة ذائعة عن امرأته انها خرجت من قصرها فاختفت وبما انها لم ترتكب ذنباً صوب ولاة الامر فالاشاعة عنها مستفاضة

- من يعلم فانها غريبة في فينيسيا وليس من يعلم عن اصلها شيئاً

- ولكنها تبنت لسمو الدوج اذ وقف لها شاهدًا في الاكليل ولا بد من انجلاء الحقيقة

- ذلك ما يخطر لي

واذ لم يبق له ما يقول سار في طريقه وعيون الشجاع في اثره حتى اذا ابتعد عن المرأى رفع كتفيه استهتارًا بالامر واتجه صوب قصر فاركاس فلم يكن الكونت قد عاد



الفصل الحادي والاربعون

المحاكمة الأولى

ولم يكن رجال ندوة النبلاء بالجاهلين خطارة عملهم وانهم اقتحموا امرًا هائلاً بوضع الامير الاعظم تحت المحاكمة قسرًا عن نفوذه وسلطانه وتألب الناس لنجدته على انهم شكوا منه الائتمار على سلطتهم النافذة التي يدعونها سلطة الدولة غير عارفين بما يجر ذلك عليهم من كشف المخبا واظهار الحقيقة وناهيك بان اقامة الدعوى على الدوج لاجهاره بواجب الاحتفاء بدفن دوج آخر ليس مما يروق لدى الناس سيما وان للدوج المشكى عليه نصراء واعواناً بين النبلاء واهم من ذلك ارتضاء العامة منه وكيان الجند البري والبحري وبحارة البوارج كل اولئك من اعوانه · فرأت ندوة النبلاء ان تعد الاهبة للذود عن نفسها في نيل مآربها بان تسرع في عملها المنوي من المحكمة والقتل وان تكتم نواياها حتى ظهور النتيجة بعد اذ يكون قد تبوأ الدوج الجديد منصته وصار المقتول رفاتاً هامدًا محكوماً عليه ومنبوذًا ولكن انت تريد وانا اريد والله فعال لما يريد اذ ان عقوبات الحكومة الجائرة واصرارها على كتمان اسرارها لم يمنع الخدم في قصر الدوج من افشاء سر سجنه في القاعة الرسمية وحظره عن الدخول والخروج ومنع ذويه من مخالطته فشاع القول وذاع وملأ الآذان اذ كان الناس يتسارون به ويتحدثون همساً متسائلين عن امكان تسلط العشرة الجائرين المكروهين على اميرهم المحبوب الا ان كل سر جاوز الاثنين

شاع فنقلت جواسيس الحكومة الخبر اليهم فارتاع الاعضاء اللئام ولكنهم لم يحجموا عن العمل بل اقدموا على التسرع فيه واجتمعوا عند نصف الليل ابان تركنا التاجر المزعوم يسير نحو قصر فاركاس بعد محادثة الشجاع وكان اجتماعهم في قاعة كبيرة تجاور القاعة التي كان الدوج فيها اما المجتمعون ساعتئذٍ فالنبلاء العشرة والثلاثة وبين ايدي هؤلاء الحكام الجائرين نحو من عشرين نبيلاً في زي الحفراء فلما استقرّ بهم المجلس دعي الدوج الى حضرته وهو وحيد منفرد ولكن حسبه الله نصيرًا فدخل القاعة كعادته من رسوخ القدم وثبات العزيمة وكبر النفس وجلس في كرسيه المنصوب وفي زيهِ وهيئته كأمير يستقبل الوفود وليس كخصم امام القاضي فلما جلس امر الرئيس ان يتلو الكاتب رقعة الشكوى فتلاها واذا هي طويلة تدل على احتدام كتّابها غيظاً وانهم يشكون من الامير

(اولاً) مشاركته في فرار روبرت ستانلي من سجن الحكومة مناوءة لها والماماً بسرها وخيانة عظمى للدولة

(ثانياً) لافشائه سر السجن الاعظم اذ اطلق سراح داندالو الاعمى المعزول عن الامارة واذ اقام له جنازة فلاً تحقيراً لشان الحكومة

وبعد ذلك سئل الدوج عما يجيب عن هذه الشكاوي فاجاب بملء السكينة والثبات منكرًا صلاحية المجلس لمحاكمته ولكنه يجيبهم تلطفا بهم لاجتماعهم انه لم يكن على علم بفرار روبرت ستانلي والدوج المنكود حظه واما الجناز الحافل فانه رآه ضروريا لامير سبق له القيام على المنصة العليا وقد مات تعيسا

ولما انهى دفاعه سأله الرئيس عن تتمة كلامه فاجاب

لم يبق لي ما اجيب به

فخرجوا به بعد ذلك واعادوا سجنه في قاعته فعرف عند ذلك بما اعدوا له من النصيب على انه لم يداخله الا القليل من الريب في عقباه اما المجلس فقد احتدم الجدال فيه لكن خلافهم لم يكن الا على الميتة التي يعدونها له لان قتله كان محتوماً اذ اصبح عدوهم اللدود فرأوا انهم اذا لم يعجلوا باعدامه سبقهم الى الفتك بهم فارتأى البعض ان يشنق واشار آخرون بتجزيعه كأس السم الزعاف ولكن الاكثرين حكموا بقطع رأسه عند الدرج الاكبر ولئلا يقع الخلاف بينهم قرروا وجوب البحث في ذلك بجلسة مخصوصة تعقد لهذه الغاية في صباح اليوم التالي فاوفدوا واحداً منهم ليعلن للدوج ان النبلاء برمتهم اجمعوا على استذنابه ومتى اقروا على مجازاته يعلنوه بها وكان رسولهم اليه هو الكونت فالاس فرأى الدوج في حجرته وعنده ابنته واحد الخدم فصعب حضورها على فالاس لكنه لم ير منه محيصاً فقال

— اعلم ايها الامير البندقي المنتخب دوجاً لحكومتنا اني اتيتك رسولاً لتبليغك ان ندوة النبلاء التأمت وحكمت بالاجماع انك مرتكب الجرائم المعزوة اليك

فاجاب الدوج متهكماً

— ان ندوة النبلاء معصومة عن الخطإ

— اما الحكم بالقصاص فلم ينطق به بعد على انهم سيلتئمون غداً ويرون ما توجيه اليهم حكمتهم وسدادهم من الحكم بالنفي او بغيره

— الا انك ايها الكونت قد اتفقت مع الآخرين منذ زمن طويل وائتمرتم على قتلي ولكن احذر مما انت فاعل لاني اطلب منكم محاكمة علنية يحضرها رجال الامة وهنالك تأتون بأدلتكم وشهودكم وتبيحون لي المحاماة عن نفسي واطلب عقد ندوة الثلثمئة الذين اختاروني اميراً وبيدهم وحدهم حق عزلي عن منصبي فاذا رفضتموني هذه المنحة تعود مؤامرتكم الدنيئة على رؤوسكم ولا اموت الا وورائي من يأخذ بثاري

فلم يجب فالاس على هذا الخطاب بكلمة واحدة بل حني رأسه وخرج قاق الخاطر مضطرب البال كانه غير الرجل الذي دخل على الدوج رسولاً ولو رأى ما جرى بعد ان ادار ظهره خارجاً من الحجرة وقد اغلق بابها لازداد بحر الاضطراب والبلبال وحكاية ذلك ان توما بوناتي وروبرت ستانلي دخلا من الباب السري الذي المعنا اليه وبعد ان تحدثا مع الدوج خرجا الى عملهما ولم تمض الساعتان حتى التصق على شوارع البلدة وجدرانها وريقات مكتوبة تعلن للناس ان الظلمة المستبدين في الاحكام عاملين على قتل الدوج المحبوب سرًّا بعد اذ حاكموه محاكمة جائرة تحت طي الخفاء اذ لم يشهدها الا الخصم الحكم فلما اطلع الاهلون عليها هاجوا وماجوا ولكن تحت اردان اثوابهم اذ كان الواحد منهم يقرأ الورقة ويقطب الحاجبين وينفض الرأس استفظاعاً لجور الظلمة واذا حدث رفيقه خفض صوته خوفاً من عقاب المستبدين الذين اتصلت بهم الاخبار فدسوا رجالهم في الارجاء يمزقون تلك الاوراق على انهم امتعضوا لما كان من امرها والتأموا لمذاكرة في امرها عالمين ان جواسيسهم ملأت البلد حتى يخيل للبعض

ان منهم قوماً بين الرجال على اختلاف درجاتهم والنساء على تباين مقاماتهن والاولاد في العابهم ومع ذلك لم يعرفوا بما هو واقع في بلدتهم خفية عنهم كأن قوة اخرى كانت سائرة في البلد تضاد بفعلها وغاياتها اعمالهم وغاياتهم ولهذا رأوا من الضرورة اكتشاف تلك اليد الخفية واستئصال شأفتها والا فانهم يسقطون لان الامة متى شعروا ان الندوة احط منهم اقتدارا في الذكاء والتحيل وانه يستطاع مناوأتها اسقطوها عن بهرجها وفقد النبلاء عزهم

وهكذا قضى المؤتمرون ليلتهم بالمذاكرات والشكوك والمخاوف حتى فضوا الجلسة ....

واسفر صباح تلك الهائلة عن يوم بهي بهيج لم تر فينيسيا احسن منه يوما

ونهض الشجاع في باكرته فقصد ساحة سان مارك واذا بها يحتشد اليها الخلق الوفا مؤلفة حتى ازدحمت على رحبها وكلهم بملابس الأعياد حتى اذا رآهم غريب يتساءل عن قصدهم من ذلك الاجتماع وكان لغط الاصوات شديدا صادرا عن همس القوم على انهم وائن دلت وجوههم المنقبضة وحواجبهم المقطبة على امر جلل يخشون وقوعه لم يجهر احد منهم بما في نفسه مع علمه بان الجميع مشتركون في العاطفة

وكان الحشد عظيماً وازدياده على مرّ الدقائق وبينه القوم الذين كانت تستاجرهم الشرطة لاحياء عواطف الشعب في المجتمعات بان يقصون عليهم اخبار ما نالت حكومتهم من الظفر ابقاء على عزتها في قلوبهم

اما الشجاع بونتي فكأنه لم يكترث بما دار به من المناظر بل

كانت عيونه متجهة صوب الطرقات التي يسار منها الى فوسينا والجزر المجاورة وبعد الانتظار نال غية المنى اذ رأى زورقاً يجذف فيه رجال بثياب رسمية وما زال الزورق يدنو حتى اوشك يمرّ من امامه لو لم يناده بوناتي قائلاً لرجاله — اني اود مخاطبة ربانكم

وما عتم ان صار القارب عند البر فدنا بوناتي من صاحبه الكونت فاركاس وجلس اليه من غير كلام لان الشجاع اومأ اليه بوجوب الصمت والكتمان فاجابه الكونت الى ذلك حتى بلغا القصر فدخلوه وسار صاحبه بصديقه الى حجرة سرية فقص الشجاع فيها على الامير ما جرى للدوج وكان ذلك يسمع منه ما لا يكاد يصدقه لجسامة الامر وهول الحادث ثم قال — يجب علينا ان نسرع في العمل وان ننهض لاحباط مساعيهم وايقاف تنفيذ ظلمهم في دوجنا المحبوب

فاجابه بوناتي — وعلينا ان نعجل في الامر ولا نضيع دقيقة واحدة

— اذهب الى اصدقائنا وانهضهم اريد بذلك قائد الدلماسيين واهل الحرف والصنائع وفي هذه الليلة اخاص الدوج واسحق قوة الاعداء او اموت دون نيل الاماني

— ولكن لم لا تذهب معي في الحال

— عليّ ان اقضي هنيهة بتحية عروسي . وبعد ان اتفق مع صديقه سار صوب غرفه وحجرة العروس فما لقي هنالك من الجواري الا عيوناً مطرقة في الارض خجلاً وخوفاً فصاح بمن لقي منهن قائلاً

— اين سيدتكن

— لم ننظرها منذ يومين ولعل في هذا الكتاب غنى عن البيان

فاخذ الكتاب من يد الجارية وقرأه ثم امر باعداد زورقه ليذهب به الى قصر الدوج ناسياً كلما كان الا اخفاء امرأته فتهيأ الزورق وركبه فسار غير ان حدة غضبه انكسرت سورتها بمرور المنيهة عليها وثاب اليه رشده حاسباً ان يانكا بعد اذ قضت لبانتها من الاجتماع بحبيبها روبرت ارادت ان تتخذ لها رفيقة تلهو بها فاصطحبت زليخة وابقتها عندها فمازال ذلك فكره حتى دخل القصر فوجده كأن لم يتغير فيه شيء الا ان في ساحاته خفراء اكثر من الأول ولكنهم يتخطرون ذهاباً واياباً كأنهم لا يكترثون بما كان على انه لم يجد مانعاً يحول دون بلوغه الى مقاصير الاميرة لان دخوله الى القصر كان مباحاً في اي وقت شاء فلما صار الى حضرة الاميرة خفت الى لقائه ورحبت به واخذت يده بكلتا يديها قائلة — ان مجيئك اليَّ زيادة في كرم الاخلاق اذ قد عرفت بما اصاب والدي

- عرفت كل شيء لكن اسمحي لي ان اسألك ما ذا جرى لزليخة

فاندهشت يانكا لسؤاله وقالت - لم ارها في هذين اليومين ولا سمعت عنها خبرًا

- كيف ذلك وما امر هذه الرسالة

ودفع اليها الكتاب لذي اتصل به فاخذته وبعد اذ القت نظرها عليه صاحت

- هذا كتاب مزور عن لساني فماذا يا ترى ارادوا به يا الهي صن حبيبتي زليخة واعنها

- ان في الأمر خيانة دنيئة وخدعة لابد من ظهورها الآن

مصلحة مولانا الامير والبلاد احق بالتقديم والاعتناء الاول لاني مهما تكبدت من الاحزان الخاصة فلا ألوي عن انقاذ سمو ابيك اولاً فاستودعك الآن واسالك ان تثقي بمن لا يعد وعداً فائلاً واقسم لك ان شعرة لا تسقط من راس ابيك قبل ان افتديه بروحي

ثم مال ليذهب فرأى امامه شيخاً منتصباً وهو لابس ملابس سوداء وعلى وجهه لثام عريض فلما رأى فاركاس قال — دخلت قصر الدوج على خاطرك فلا يؤذن لك بالخروج منه حتى يحكم المجلس السري بما يراه مناسباً في امر الامير السجين

– من يجسر . . . .

– ذلك امر الندوة العليا — ثم رفع اللثام عن وجهه فبان من تحته روبرت ستانلي قائلاً — من حسن الحظ اني رأيتك تدخل القصر وقد عرفت بمكانك من الخطر فاسرعت للأنباء بما كان فعجل

ثم عطف روبرت على حبيبته بيانكا فحياها تحية العاشق الولهان وعاد الى صديقه فسار امامه وانحدر به من ابواب السر

– ان ميلك الى سمو الدوج غير خفي عن ظلاّمه لان عيون القوم باصرة وآذانهم سامعة

— وانت اراك عارفاً بطرق القصر الخفية عن سواك

— بما ان وجودي في البلدة ما برح خفياً عن الجائرين ولي في زيارة القصر والتردد عليه مآرب لا تخفى عليك فقد فزت من الشجاع بوناتي بالاطلاع على مكنونات العصور الخالية

قال ذلك وهما قد بلغا سلماً صغيراً ينتهي الى قبو فدفع روبرت فيه باباً خفيا خرجا منه الى اسفل المباني وما عتم ان دخلا بين

الجمهور واذ اضطرا الى تغيير ملابسهما عدلا الى مسكن الشجاع وكان روبرت قد عرف السبيل اليه فدخله الى الحجرة الخاصة حيث كان قد اجتمع من قبل بالدوج وما اقام الصديقان هنالك هنيهة حتى انضم اليهما بوناتي فاخبرهما انه رأى كثيرين من الاصدقاء واتفقوا على الاجتماع في احدى البرابي القديمة الواقعة تحت دير الكرمليين ولا خفاء ان الموضع يغمره الماء من كل جهاته وهو من المكنونات التي لا يعرفها من الناس الا نذر قليل ولذلك يحتشد الاصدقاء فيه حوالي الساعة العاشرة قبل نصف الليل فيتدججون بسلاحهم ويخرجون للانتشار في المدينة ومن ثم يذهبون نحو قصر الدوج فيحيطون به وينقذون الامير من مخالب الظالمين ويعودون اليهم فيعتقلونهم جميعاً ويجهرون بالحكومة العادلة المؤسسة على الحرية والمساواة مثبتين لعامة الامة حق اختيار الدوج والندوة العليا وبذلك ينقضي اجل الندوتين المشهورتين بالعشرة والثلاثة ولا يكون عقاب اعضائها الا اقل جزاء خبائثهم الماضية وجورهم المتجاوز الحد

وتباحث الاصدقاء الثلاثة بما هنالك من الشؤون وانهم يتعين عليهم الذهاب الى مصنع البوارج وثكنات الدلماسيين والاجتماع بزعمائهم الهمام ليتسنى لهم الوثوق بنجاحهم

ومع انهم علموا ان العمل الذي يهتمون به قد يؤدي بهم الى حتوفهم لم يقعدوا عن النهضة الواجبة عليهم لتخليص الوطن من ظالميه ولانقاذ الامير من سلطان الجائرين

ثم شرع الكونت فاركاس يقص على صاحبيه ما علم عن امرأته فاجابه شجاع — لا انها عند قبضة اللص كوزمو والخدعة التي احدث

بها ميسورة الحصول لان في بلدتنا جماعة من الكتاب الذين يزورون الخطوط ولا يعسر عليهم تقليد خط معروف ككتابة الاميرة بيانكا

– وهل يخطر لك ان ذلك الشقي يعاود فينيسيا بعد ما لقي فيها الأمرين

– بلى عاودها وقد رأيته وحدثته

وقال روبرت – وانا كذلك

– ولم تركتماه ينجو من بين ايديكما

– تركناه عملاً بالامانة بين اللصوص اذ انه ذاكرني في قتلك على ان يؤديني الف درهم

فقال بوناتي – ولكنه لاينجو هذه المرة ونحن سيكون لنا ساعة فراغ قبل اجتماعنا في هذا المساء فان شئت نتفرغ بها لمسألة السيدة زليخة وكوزمو اللعين

فصدق الكونت على رأيه وللحال غيرا زياءهما وسار كل منهما في طريقه لاتمام ما عهد اليه من العمل لمحفوف بالخطر اريد به جمع القوة اللازمة لقلب الحكومة الحاضرة ذات لعجب والصلف والادالة بها من حكومة عادلة وليس حفيا ان هذه الحكومة كانت متى شعرت من قومها بالمضادة او آنست من احد استيحاشاً بكلمة او حركة ابكت ذلك الواحد او الجماعة من صرامتها وقسوتها بما لا يطاق اذ تفتك فتكاً ذريعاً وتملأ الترع باشلاء قتلاها على ان الاصحاب الثلاثة اتخذوا الحيطة والحذر وتبادلوا كلمات السر وعينوا ساعة الموعد وكانوا يخشون من مسعاهم ان يحبط اذا كان بيد المؤتمرين غير واحد من الخونة

او الجواسيس الذين يدخلون بينهم فيفشون سرهم وويل لهم ساعتئذ بما كانوا يعملون

ولكن ايجاسهم هذا الخوف لم يقف في سبيلهم ولا ردهم عن تتبع اعمالهم بل القوا اتكالهم على الله تعالى واسترسلوا الى عنايته في نصرة المظلوم حتى اذا اجتمعوا المؤتمرين اخذوا عليهم المواثيق والعهود بالايمان المغلظة التي اقتضوها منهم في حضرة الكهنة المشتركين في العمل

وغربت شمس ذلك النهار وكانت الساعة السابعة فاجتمع الاصدقاء الثلاثة في احدى الحانات وقصوا على بعضهم ما عملوا وما فازوا به من تكثير عددهم وتعزيز قوتهم وانهم حرضوا الموافقين على التأهب للنهضة الواحدة عند سماع البوق الذي يهتف به مخصوصاً اشارة لابتداء العمل

واذ لم تكن الساعة قد عينت وانما يبقى تعيينها لقرار المجتمعين في البربي قبل للمؤتمرين ان يستعدوا للعمل بعد خمس دقائق من مضي كل ساعة يسمعون دقاتها

الفصل الثاني والاربعون

النجاة

وكان لم يزل باقياً من الوقت للاجتماع المقصود نحو ساعتين فعزم الاصدقاء الثلاثة على صرفها في التفتيش على زليخة اما بوباتي فانه كان واثقا من نفسه بمعرفة كوزمو وان تخفى عنه بازياء متباينة ولذلك لم

يكن ليشكر عليه ومع هذا فان الشجاع لم يشأ ان ينقله من غير ان يتملك ناصيته ويجعله تحت طلق امره ليطلع منه على سر كان بينه وبين امرأة بوناتي ولهذا كان يجهد النفس في تتبع آثاره بهمة لا تعرف الملل وعزيمة ثابتة اذ هو من منذ نشأته مفطورٌ على معرفة وسائل الشرطة الخفية وقد مارسها طويلاً في اكتشاف الغوامض وما زال يقتفي آثار اللص ويخادعه حتى اقتص آثاره ولحق به الى مسكنه

ولم يكن بين الناس اكثر معرفة بقصر مالاسبينا من الشجاع بوناتي لان الموضع كان خالياً من السكان من منذ خرج منه آخر النازلين فيه وليس خفياً ان هجران المنازل مدعاة الى خرابها وناهيك بان العث والعفار والتعرض لتقلبات الجو قد اودت بغنائم امراء هذه العائلة وما كسبت في ماضيها من الأعلام والرايات حتى كأن تلك المفاخر قد اصبحت هرقاً اقرب الى البلوى منها الى الوجود

وكان من شان الشجاع ان يدخل القصر في جنح الدجنة فيدوس بوطئته الخفيفة على التراب المجمع والعفار المتلبد فلا يسمع وقع اقدامه ولذلك كان يطوف انحاء القصر متفقداً مداخله ومخارجه عارفاً مكنونات بنائه لعله يهتدي الى شيء من الاسرار التي تحل عقال امرأته

ولقد مرّ بنا في سياق الحكاية ان القصر كان في تلك الاونة بين يدي العملة والصناع يعملون به لاصلاحه واعداده للوارث الجديد الذي يدخله بعد اثبات حقه فيه فيجده فاخرًا عظيماً

وكان العمل فيه متسع الدائرة جدًّا حتى ليحجم عن التعرّض لدخوله كل ذي لبٍّ الا بوناتي فكأن له القدرة على الدخول الى

المغلقات للاتصال بما يتعذر بلوغه او كأني به لا يقعد عن ايجاد الوسائل لتمكنه من حل الامور العسيرة

لا جرم انه اقبل ورفيقاه فلم يجد الولوج ميسورًا من حيث اراد فعدل بهما الى باب الماء وخلع منه عارضة من الخشب فدخل قاعة وسيعة الارجاء لكنها مظلمة لقصور النور عن اختراقها وموقعها تحت السلم والى كل من جانبيها دهليز

واحد هذين الدهليزين ليسار به الى المطبخ وقاعة الخدم وبيت المؤنة على انه مهمل لم يستخدمه احد من اصحاب الدار

فمرّ بوناقي به لاختباره وعاد منه فاختبر الآخر ولم ينل من كليهما اربًا ومع ذلك فانه كان واثقاً باحتواء الدهليزين على مكنونات مهمة

فعاد الى رفيقيه وسألهما المعاونة فساروا معاً بعد اذ اخرج من طي اردانه مصباحا خفياً واناره واتجهوا جميعاً صوب الأقبية حيث كان الاقدمون من امراء القصر يزخرون الخمر والزيت والعسل وغيرها من اطائث الماكول

وتبين الرجال حال البناء فوجدوه قائم الاسس في وسط الماء ولكن بنيت الجدران حولها بناءً محكماً لمنع نفوذ الماء الى الموضع الآن لا كأنهم لم يأتوا الموضع استطلاعاً لشؤون هندسته بل اكتشافاً على مكنوناته وحسبك انهم شرعوا ينظرون في فوارغ البراميل والصناديق والخوابي ويقرعون في خلال ذلك على الجدران قرعاً خفيفاً ليستهدوا به الى الخفايا

وبي الله تعالى ان تضيع اتعابهم من تخاذل هممهم اذ وجدوا

ممرًّا الى الجانب الآخر من القصر فظن بوناقي ان المكان واقع تحت القاعة الكبرى فدخل من الممرّ وما عتم ان اعتقد بنيل امنية نفسه باطلاعه على الخفية التي ارادها اذ رأى باباً من حديد في احد الجدران على انه لا يراه الا الرقيب الخبير لاختفاء اثره بحسن صناعته فامعن بوناقي فيه نظره وقلب في اختباره وجوه فكرته فما اهتدى الى ثقب مفتاح او علامة او ذرّ او شيء آخر يفتح به فقرع عليه بطرف خنجره فلم يرن فحدثته نفسه بتركه وهمّ الى ذلك واذا بهم يسمعون وقع اقدام خفيفة فللحال اخفوا المصباح وابتعدوا عن الموضع قليلاً ووقفوا يتربصون وما عتم ان دخل الموضع شخص آخر واذ تبينوه رأوا امرأة تحمل في يدها مصباحاً وهي تنظر الى الارض وتتجه صوبهم فلما نظروا المرأة عرفوها انها سليمة الخائنة الخداعة فاكتفوا بظهورها دليلاً على صدق ظنهم بما يطلبون فوقفت تجاه صفيحة الحديد المعلقة في الحائط كأنها لوح معدٌّ للكتابة ثم وضعت مصباحها على رفّ هنالك كأنها تقصد بذلك امرًا ثم وقفت كالجاثية على ركبة واحدة وكانت عيون بوناقي ترقبها بامعان فرآها مشت في الارض شيئاً فانزاحت صفيحة الحديد وانكشفت عن ممر فدخلته سليمة للحال تاركة بابه مفتوحاً فما مرت بضع خطوات حتى لحق الرجال بها فرأوا ثمة حجرة بديعة الاتقان فاخرة الرياش يليها عدة من المقاصير الاخرى مما مر بها كثير من حوادث الشؤم والشقاء اما سليمة فما برحت تتقدم في خطواتها غير عارفة بما وراءها حتى بلغت غرفة صغيرة لها باب لا مفتاح له فوقفت هنالك قليلاً ومالت على الباب ففتحته بمثل ما فتحت باب الصفيحة

عندئذٍ اومأ الكونت فاركاس لرفيقيه بان يرتدا الى الوراء · ذلك لانه سمع صوت امرأته البديعة قائلة — اهذا انتِ يا سليمة وهل ترى جئت لانقاذي

- بلى جئت لاكلمك واسعى بنجاتك من اللص الخبيث الا وهو الكونت مالاسبينا زوجي الشقي وذلك على شروط اقترحها عليك

- وما هي شروطك

- انك عند ذهابك من هذا القصر تذهبين الى البر ولا تظهرين وجودك للكونت فاركاس

- ولماذا ايتها المرأة الظالمة

- الا تعلمين ان الموت جزاء من يتزوج امة وان تلك الامة ونسلها تعاقب ايضاً بالتفريق في لجة البحر

- ولكنني لست بامة بل اني بنية حرة خطفني الشقي من اهلي وانا رضيعة ولطالما اخبرني ذلك واراني حلاً وحللاً تدل على الامر

- وهل ان تلك الآثار لم تزل عنده

- كانت لا تبارح صوان حجرته في السفينة على اني لا اعرف لهذا العهد اذا كان له في مياه فينيسيا شيء من السفن

لا ريب في ان مركبه راسٍ تجاه الليدو ينتظره ويه اذ ينتاب ذلك الموضع في كل ليلة فاذا وقع علينا حيف نستطيع الفرار بتلك الواسطة الا ان الشقي نفسه قال عنك انك امة

- ثم قصد بذلك ارهابي واجباري على ترك زوجي فيا سليمة الا ترين في فؤادك حناناً على ابنة بريئة من الذنوب واذكري انك

كنت من الاماء ايضاً وقد تزوجت فاصبح حالك و بعلك كالحال التي تذكرين عني

– ولكن الاختلاف بيننا انه ليس من يشكو مني ما رميت به

فعند ذلك صاح الكونت فاركاس وقد دخل الحجرة – انا اشكوك ولا بد ان افعل فلما رأته زليخة وسمعت كلامه نهضت اليه والقت بنفسها بين يديه اما سليمة فاخذها الذهول وتولاها الاندهاش ونظرت الى الزوجين بعيون ملأها الحسد والبغضاء وما تمالكت ان تحسب نظيرتها على وشك نوال السعادة بل استلت من حزامها خنجرًا واندفعت به كأنها اللبوة الفاقدة اشبالها ودنت من زليخة قائلة لها – موتي اذًا قبل ان ينعم بقربك وانا انقلب على احر من الجمر

ثم رفعت يدها بخنجرها لتطعنها به ولكن عاجلها الشجاع فقبض على ذراعها بملء قوته وحال دون مضربها قائلاً – ويك ايتها اللبوة الجسورة فانا نصون النساء من ارتكاب جريمة القتل لان سنة دولتنا تحظر ذلك

فشهقت سليمة الشقية و وقعت على الارض مغشي عليها لخيبة آمالها

فتركها الرجال في حالتها وخرجوا بالغادة مغادرين القصر الى الشاطىء حيث وجدوا زورقاً مارًا فنادوه واتجهوا صوب قصر فاركاس فبلغوه سالمين وعهدوا بزليخة لخدامها الامناء بعد اذ حرضهم سيدهم على العناية بها وخفارتها اذ هم مسؤلون عنها ثم جلس فكتب امرًا رسمياً بعث به الى رباني بارجتين فويتين من البوارج الراسية في الميناء يامرهما به ان يقبضا على مركب القرصان الراسي تجاه الليدو وان

يستعينا على ذلك بالقواريب المسلحة و يبذلا في ادراك غايتها ما عز وهان ثم دفع بهذا الامر الى روبرت ستانلي واوعز اليه ان يلاحظ اجراء مفاده اما بوناتي فمضى الى حال سبيله ليرى في عقد المؤامرة المتفق عليها تاركاً الزوجين ليقصا على بعضهما ما قاسياه من الم الفراق وما يحيق بهما من الخطر والمكروه واذ علمت زليخة بما في الخاطر من الاعمال قالت وهي في اضطراب عظيم

— وهل عقدت العزم على مفارقتي

— ان ذلك واجب عليّ لان الدوج المحبوب في اشد الخطر

- تحدثني نفسي انا اذا افترقنا لهذه الاونة يكون ذلك اخر العهد بلقائنا

— ولما ذا يخطر ذلك في بالك

— لانى اراني دائمة التعرض للخطر في حياتي وشرفي ما زال كوزمو حياً بل انا مصدر البلاء لنفسي والشقاء لمحبي

— لا انك ستحرسين ولا يقرب رجاله وسعاته منك منذ الساعة حتى اذا اباح حدمي لهم الدخول اليك عاملتهم كأنهم شركاء الائمة ومتفقون معهم

— ولكني احشى شيئاً آخر غير خبائثه . ذلك ان بغضاءه لنا قد تلحق بنا ضررا ولو كان من اهل القبور

— وكيف ذلك

فلم تجب بشيء ولكنها نهضت واقفة على قدميها وكان خوفها قد زاد في حماسة حبها اذ قالت

— ما ذا اسمع

ومن ثم قبضت على ذراع حبيبها قبل ان يجيبها ببنت شفة واذا بالباب قد فتح ودخل منه جماعة من الناس من غير استئذان وكلهم كأنهم من الاشباح التي ترى في المنام غير ان الكونت عرفهم للحال وان كانوا جميعهم لابسين السواد وملثمين الا واحد منهم وهو ماسير كراند ورأى ادريان انه يستحيل عليه اخذهم قوة واقتدارًا او ممانعتهم عن قصدهم فقال — ما سبب هذا الدخول الفجائي

— انما ذلك امتثالاً لأمر ندوة النبلاء

— لم يبق لي الا الامتثال . اما انت يا زليخة فلا تراعي لان في الامر خطأ فاجابه الضابط بصوت خافت — والسيدة ايضاً في اسري ولعلكما تذكران ان النبيل اذا تدنس بالزواج من امة لا يلقى الا الموت جزاء وفاقاً فضحك الكونت من كلامهم مستهزئاً وقال

— سر بنا لان مثل هذه التهمة الساقطة لا يعسر الجواب عليها

فانحنى رجال الندوة احتراماً وساروا بالاسيرين الى زورقين فركبوهما وساروا على مهل صامتين الى السجون الواقعة تحت قصر الدوج وهنالك زجو كلاً من الامير وزوجته في موضع مخصوص وكلاهما في كدر لا مزيد عليه هذا لخيبة ظنه وتلك لتوالي الاحن عليها ولكن ما ذا يجدي التسخط والغيظ من ضمن جدران السجون



الفصل الثالث والاربعون

﴿ المؤامرة ﴾

كان دير الكرمليين قائماً على جزيرة لا يجاوره فيها احد من العظماء ولكن تحيط به بيوت محترفي المهن الحقيرة و بينهم الصيادون وكان الرهبان قد رحلوا من ذلك الدير القديم الى موضع آخر ابتنوه حديثاً في البر فاصبح ديرهم ثكنة يستقر بها العسكر الا في تلك الاونة فان ساكنه لم يكن الا رجل من انسباء بوناني ليس عنده الا امرأته فقط وكلاهما يحبان الشجاع ويرغبان في خدمته فسألهما تلك الليلة ان يتركا الباب الخارجي مفتوحاً ففعلا وكان الظلام حالكاً والضباب كثيفاً وناهيك بانفراد الجزيرة ذائداً عنها يمنعها عن بلوغ شرطة النبلاء وعيونهم اليها متى ارخى الليل سدوله لانهم وان كانوا رعبة البلاد ورهبة سكانها فما هم على حالة يستنيمون بها الى حلك الظلام ووراءهم من بغضاء الاهلين عدوان شديد قد يفضي بهم الى الهلاك على غرة من عيونهم ورصدهم ولهذا لم يكن في فينيسيا موضع يستأمن المؤتمرون فيه من مداخلة الدرك مثل هذا المكان

لا جرم ان عجب الاغنياء وخيلاء الامراء والسراة زادا في امتعاض العامة منهم وانقباض نفوسهم عنهم بحيث كانوا يكرهون منهم مقامهم متوقعين دنو اجل آ.ودهم متشوقين لذلك الحين الذي به يقلبونهم عن عروش دولهم الأثيلة ولهذا كله لم يكن ثمة خوف من تجمهر المؤتمرين على الاعيان بين ظهراني اولئك الفقراء لانهم لا ينمون باسرارهم اذا ادركوها

وجاء القوم في تلك الليلة زرافات ووحداناً قاصدين الدير القديم تحت جنح الظلام الدامس حتى اذا انتهى عديدهم أُوصد الباب الكبير ودخلوا القاعة السفلى وكان ضوءها ضئيلاً وعند احدى زواياها مائدة كان عليها روبرت ستانلي وبوناتي وغيرهما من رؤساء الثوّار وامامهم كتاب اسود يراد به الاحتواء على اسماء المؤتمرين لذين اذا حبطت مساعيهم يلقون موتاً ذؤاماً وما ذلك الا غير ما عرفه البنادقة من الكتاب الذهبي الذي يضعه النبلاء في دار ندوتهم ليكون نصيب من يكتب اسمه فيه احراز الفخر الاثيل والمجد العظيم

فلما انتظم عقد المجتمعين قرئت اسماؤهم فاجابوا جميعاً الا واحداً منهم لم يكن حاضراً بينهم وان هو الا القائد الذي اتخذوه لهم زعيماً اريد به الكونت ادريان فاركاس واذ لم يعط جواباً ساد السكوت على القوم وصاروا كأن على رؤوسهم طير يوجسون من الليالي خيبة الى ان قال احدهم — ايظن انه خاننا فافشى سرنا

فاجاب ستانلي وقد احتدم للاضطراب والقلق عن حساب قائلاً ابى الله ان يكون ذلك . اقترابا واني اسأل لديكم بما يقضي من ادريان النبيل اما غيابه فلمصلحتنا ثقوا بذلك . وبصادق حدسي

ومع ثقة الانكليزي بصداقة النبيل داخلته الظنون وشرع ينظر في فض الاجتماع بداهب ... على ... وحده وشرع يذاكر المؤتمرين بما كان من الامر الجلل الذي قصدوه حتى اتوا عن آخر تفصيلاته مبينين لكل منهم ما يفرض عليه من العمل والموقف ثم خطب روبرت فيهم خطاباً حماسياً ضمنه خلاصة الجلسة واهمية الاقدام

موجباً على كل منهم ان يكون صادقاً لذاته وعمله فتدرك عند ذلك بلدتهم شأوَ الحرية التي اشتهت طعمها من زمن طويل

وما اتى على آخر كلامه حتى ارفضت الجلسة وفي صدر كل من حضورها حزازات تغلو واقدام على الاهبة للعمل اما الصديقان بوناتي وستانلي فركبا القارب الذي اتيا به واخذا يقصان احدهما على الآخر تخيلاه من الظنون وهما متجهان صوب قصر فاركاس فلما بلغاه وجدا الخدم في حالة الخوف الشديد والكدر الزائد حتى انهم لا ينطقون بكلمة فانفردا باحد الموثوق بهم منهم واستخبراه فاحكى لهم ما كان من الامر اي ان شرطة الحكومة جاءت القصر واخذت كلا من الامير وزوجته وان الخدم لم يحضروا لاعتقال لخوفهم ولهذا لم يعرفوا من القضية شيئاً غير وقوع الحادث

فوقع الخبر من الصديقين موقعاً هائلاً خشية ان يكون الاعتقال نتيجة اكتشاف المكيدة لكنهما لم يقطعا الجدال بذلك بل حسبا ان الحادث ربما كان شخصياً محصورًا بالمعتقلين فقط وانما لا بد لهما من بت الحكم واظهار الحقيقة قبل الابتداء بالعمل فتذكر روبرت عندئذٍ اتفقه مع المنستر بزي التجار على قتل فاركاس وخطر له انه ربما يجتمع في ذلك الموضع المنفرد فسار برفقة صديقه من القصر وشرعا يتجاوزان الازقة والشوارع تحت ظلال الجدران خفية عن العيون حتى وصلا الى الفناء المعهود فوجداه خالياً لان القوم كانوا قد سكروا تلك الليلة الى الساعة بعد انقضاء الليلة السابقة في هياج عظيم فكان معظمهم قد دخلوا دورهم آمنين

وانعم الرجلان النظر فابصرا رجلاً يسرع الخطى وهو مارٌ تحت القناطر على ان هيئته كانت تدل على اضطراب باله وانتظاره غير واحد من الناس فاراد الصديقان معرفته قبل ان يظهرا عليه فسددا خطواتهما نحوه خلسة عنه حتى عرفا من شكله انه رجلهما المطلوب فاراد روبرت ان يتقدم نحوه منفرداً عن رفيقه لانه كان مدججاً بالسلاح بحيث لا يتهيب مثل هذا الرجل ولكن ما عتم ان ظهر رجلان يتقدمان نحو التاجر المزعوم فانزوى الصديقان وشرعا يرقبان واذا برجلهما يقول — لقد تأخرتما

فاجابه صوت عرفه الصديقان انه صوت فالاس قائلاً

— ان لنا في عاقتنا سبباً مشروعاً ذلك ان البحث في الندوة كان محتدماً لان كثيرين من الاعضاء المقتدرين النافذين يطلبون ان يحاكم الدوج محاكمة علنية

— وبماذا أجبتم

— لم يكن لنا من مجال الا الى التأجيل لان المحاكمة العلنية تقضي بوجوب اتخاذ علة في الشكوى ونحن لا نجد شكاية على الرجل

— بل فلتكن شكايتكم له انه خائن الدولة

— تلك شكاية مبهمة وانما من الضرورة ان نثبت على مبدئنا لانني احسبني حتى الآن قد تنازلت الى الاجابة كثيراً اذ رضيت ان يحاكمه القضاة العشرة بحضور الثلثمائة الذين يسمعون الشكوى والحكم

— واي متى يكون ذلك

— غدا ليلاً واما القتل فنصف الليل حسب العادة

— احسنتم وما ذا كان من امر فاركاس

— انه لفريسة اقل من تلك عسراً وقد عزمنا على قتله في محبسه

— بقي ان نسأل عن الكونتة امراته

— اذا اعتبرت حقيقة الشكوى وجب قتلها ايضاً

— ولكن ابى الله ان نقتل لاني افضل نجاة زوجها على قتلها

— ولكنها لا تعيش متنعمة بالحرية لان ن سنن حكومتنا ان يكون قصاصها الموت او الحبس المؤبد

— الا ان لي الى نجاتها سبيلاً آخر ذلك ان سليمة التي أُرغمت على الزواج بها انما هي في الحقيقة امة مشتراة فلتمت بديلة عن الكونتة فاركاس وحينئذٍ تكون امرأتي نائلة عند تعرف اميرات فينيسيا بها المقام الاول بين العظيمات

— احسنت ولا بد من اجراء هذا التبديل قبل تنفيذ الحكم اما الآن فاستاذنك في الانصراف لاني اكتفيت من العمل في هذه الليلة وانا قاصد منزل الكونتة ليبانو

— اما انا فماض الى داري وغدا اتدبر في عمل عليه مدار مستقبلي

ثم انحنى فالاس وصاحبه اما كوزمو فاتجه الى بيته مسرعاً حتى اذا ابتعد عن الرجلين قال احدهما الملثم الذي لم يتكلم مخاطباً فالاس

— ترى اي شيء اراد كوزمو بتعريضه في منصة الكونتة فاركاس

— ثارت فيَّ الظنون لهذا القول ولكني لا بد ان استجليه غداً مساءً

قال ذلك وسار برفيقه

وسمع الصديقان روبرت وبرناتي ذيالك الحديث فاهتاج دمها

حتى ان الشجاع كاد لا يصبر على ما في نفسه وانما كظم الغيظ وصحب رفيقه في السير على اثر اللص المتستر حتى اذا سارا بضع خطوات عادت الحدة الى نفسه فقال لقد حدثتني نفسي بما كان فوالله لسوف . .

ثم رفع خنجره من غمده كأنه اراد ان يودعه صدر الشقي ولكن عاودته الحكمة فصبر قائلاً — ابى الله ان أثأر لنفسي الا تمام الثأر غير تارك في الظن شيئاً

ولم يزد على قوله فبقي روبرت لا يعلم من حديث رفيقه شيئاً وانما سار معه يرقبان اللص حتى ركب زورقاً فيه رجلان فاتجه الزورق به صوب قصر مالاسبينا على حسب عادته فلم يهمله الرفيقان بل لحقاه عن بعد وفي عزم بوناقي ان يدخل القصر وحيداً ليستطلع طلع خباياه اما روبرت فيبقى خارجاً للمراقبة على ان في ذلك الدخول خطراً عظيماً لما كان من هول الوقائع المحكي عنها وانما لم يكن بوناقي بالرجل الذي يتهيب من الامر او يخشى شيئاً ولذلك عقد العزيمة على السعي في غرضه او الهلاك في سبيله

ولقد عرفنا منه استسهال الصعب في دخول القصر وانما ذلك كان شأنه قبل ان اوجس الشقي من ذلك سرًّا

ومع هذا فقد ظن بوناقي خيرًا وحسب انه يفوز بعضد احدى المنوطات بالخفارة الا وهي سليمة

فدخل وما زال سائرًا حتى بلغ القاعة وهنالك اصغى فلم يسمع صوتاً فظن بذاته آمناً وبدأ يصعد في الدرج وكلما ارتقى قليلاً اصغى لعله يسمع شيئاً حتى انتهى الى الغرف وهي على وشك النجاز من

تصليحها فمرّ بها متمهلاً وبلغ الحجر التي حسبها مقام الوكيل وابنته ومن لديهما من الخدم

وهنالك وقف فسمع لغط الاصوات وما عتم ان انزوى وراء السجوف المنسدلة على باب القاعة التي كان الصوت صادرًا عنها فاصغى واذا به يسمع مكالمة اللص وسليمة فنظر اليهما من وراء السجوف فرأى اللص مضطرباً مهتاجاً وقد اظلم وجهه مع انه لم يخض طويلا بحديث فرار زليخة لان الانتقام منها كان في قبضة يده ولذلك لم يكن غيظه من فعلتها عظيما سيما وفي ظنه ان بموت الدوج يخلو له الجو من المعارضين فيشطح ويمرح من غير مانع

وتتالت هذه الافكار في بال بوناقي صادرة عما رأى من منبت اصلتها في اسرة الشقي واذا بسليمة تقول

- وما ذا جرى

- قدمت عليهما الشكوى فاعتقلوهما

فارتعدت فرائص المرأة عند سماع هذا الكلام واضطربت حتى رقصت شفتاها جزعاً وغيظاً كامناً في النفس وكأني بها تجهد النفس في الكلام فلا تطاوعها الالفاظ الا قسرًا ولذلك اجتزأت عن الحديث الطويل بقولها — وما ذا اترى جرى له

— اتعنين عن فاركاس انه تحت رحمة النبلاء في الندوة العليا

ثم نهض من مجلسه وشرب كاساً من الخمر وانصرف فالقت سليمة بنفسها على المقعد صفراء من الحزن والقلق لانها كانت لم تزل تحب ادريان بالرغم عن صدوده وجنائه وعن بغضائها لامرأته وغيرتها

العمياء منها ومن حبه لها وهذا منتهى العجب وانها لغارقة في بحار الهم من مصابها فيه واذا بصوت قريب من اذنها يناديها باسمها فمالت نحو الصوت ورأت الشجاع بوناتي قريباً منها فعرفته للحال وكادت تصيح مستغيثة لولم يومئ اليها متهدداً وقائلاً — اذا نطقت بكلمة واحدة كان ذلك آخر العهد بك على اني جئتك هذه المرة كصديق لك

— أأنت تجيئني كصديق

— نعم وغاية قصدي ان انقذك من هذا الشقي

فحدجته سليمة بنظرها وشرع يقص عليها الحكاية حتى نهايتها فادهشها الامر واغاظها ثم قالت

— ايريد ذيالك اللئيم ان يحكم على الكونت ادريان وامرأته بالقتل وان يقتل الفتى الباسل المحبوب وتنجو امرأته لاكون بديلة منها في تجرع كأس المنية وتكون هي بديلتي في زواجي من اللئيم نبي الله ان نتم له اماني نفسه الخبيثة وفيَّ عرق ينبض فاني لأذبحنه هذه الليلة

— بل دعيني اتولى قصاصه بيدي وانت ايهمك نجاة الكونت من القصاص

— انقذه من الموت ليحب غيري

— ولكن اذكري ان الكونت لا يستطيع ان يحبك لانك امرأة سواه وستكونين ارملة اللص الخبيث وحسبك في ذلك مانعاً عن الحب ثم ليس من الواجب ان يحول المانع دون نهوضك بواجب الكرم والانسانية اما كان ادريان لك صديقاً محباً اما نجاك من الرق وجعلك في مقام الاحرار فلا تقدان الى منزلة الذين يعضدون القاتل

- اذا اقتدرت انقذه فما ذا اعمل

- سيري بي الى حجرة اللص

فانقبضت اسرة الفتاة ولكنها اطاعة الامر غير مترددة فسارت بالشجاع الى الحجرة وهي التي كان اللص يسكنها من قبل اي حين اذ كان اميرًا في رتبة دوك بندقي لم يتدنس يومئذٍ برجاسة اللصوصية فلما صارت سليمة بمنقذها اليها دخلاها من غير معارضة فاذا هي فسيحة الارجاء ثمينة الرياش وفيها مواضع جمة للاختفاء فيها فاستترا وكان صاحبها يتخطر على بسطها الفاخرة وفي وجهه قطوب الهم والفكرة وهو يقول لنفسه — لا بد من انقاذها واتخاذها لي زوجة لانهم متى عرفوا من هي صاروا لا يجسرون على قتلها اما هو فلا بد من اعدامه قبل ان اظهر بينات نجاتها

قال ذلك ثم اتجه صوب صندوق كبير وشرع يخرج منه قطعة بعد اخرى من الثياب الصفيقة والملابس والأحذية والازرار والعقود والأساور واشباهها وكان في العقد اداة تتدلى على العنق ذات غلف وشكل جميل فامعن فيها نظره ثم قال — مالي ولاظهار فعلتي امام الناس ورجوعهم للتحدث بما مرَّ مع بقاءي مقيدًا بهذه الفتاة التي اضطرني الامير صوتو الى التزوج بها حاسباً ان ذلك يقيدني بها ابد الدهر ولكني بيدي اتولى الثأر منها واتخلص من العبيء الثقيل بها وانال اربي ممن احب

وبعد ان نطق بهذه الكلمات اغلق الصندوق ثم قال — ان احد الأمرين ينقذها ويعيدها اليَّ زوجة شريفة المقام واني لأعرف من

النساء من اذا رأيين طالباً راغباً تمنعن عنه دلالاً ولكن الى حين ومن ثم يرضين به بعلاً

ثم وضع مفتاح الصندوق في جيبه وتخطر بضع دقائق ثم خرج من الحجرة كأنه اراد ان يحيي الليل في الافكار والتخمين ليميت وخز الضمير ويمر به الوقت سريعاً اما بوناتي وسليمة فظلاً مستترين وراء السرير الكبير كل تلك المدة حتى خرج اللص من الحجرة فظهر بوناتي من مخباه واسرع الى الصندوق فحمله وسار من الموضع وسليمة في اثره حتى بعدا قليلاً فاقنعها بالفرار معه نجاة بنفسها من عشرة زوجها اللئيم

وليس خفياً انها لم تمل اليه بحبٍّ صحيح وانما كانت تتخذه ويتخذها سبيلاً للشر ولطالما ارتكب احدهما الشقاء مستعيناً بالآخر حتى رأت منه ما اوجب نفرتها وزادها كرهاً له

وخرج بوناتي بها من قصر مالاسبينا فوجدا روبرت ستانلي لهما بالانتظار فهرولوا جميعاً غير مترددين ولا متمهلين حتى دخلوا بيت بوناتي آمنين فاقام روبرت وسليمة تحت عناية قهرمان الدار اما بوناتي فقال — اني لم انهِ حتى الساعة الا نصف العمل الواجب عليَّ قضاؤه في هذه الليلة

ولذلك ذهب وفي نفسه مزيج من البغضاء لقوم والأمل بنجاح قوم آخرين وفي خلال ذلك تحدثه نفسه بما يكون في الغد فتارة يظن ان تلك الليلة آخر العهد بمظالم القوم الجائرين الذين قضوا في مظالمهم ثلاثة عشر عاماً او تزيد وطوراً يحسب ان نار الثورة اذا

خبت عن غير فائدة زادت الجور والعسف في وطنه واودت به وبالعصبة المتحالفة على احياء العدل والنظام وناهيك بان الساعات الباقية لتلك الاونة ستكون اخر عصر قديم او بدء عصر جديد فالفرائص ترتعد جزعا من توقع المكروه والنفوس تؤمل خيرًا من نيل الاماني

وكان القمر ساعتئذٍ قد توارى وراء الحجاب ولم يبق في البندقية من الاضواء الا الضئيل فسار الشجاع متواريا عن الانظار متحجباً في الظلام حتى قصر الدوج فدخلهُ ولم يكن في ظاهره قد تغير شيء مع ان في مكنوناته حوادث هائلة ووقائع جسيمة ولقد سبق لنا التنويه بما كان لهُ من كلمة الدخول الى القصر في اي حين اراد ولهذا نطق بالكلمة في مسمع الحراس ففسحوا لهُ طريقا فدخل كعادته وتحت ردائه الصندوق المأخوذ من بيت اللص فاجتاز جسر التنهدات ودخل السجن حيث لم يكن قد جاءه منذ ايام فرأى امرأته مريضة ممتقعة اللون منحطة القوى واذ لم يكن لها سواه وقد طال غيابه عنها شرعت تلومه بلطفٍ على بعاده فاجابها متلطفاً

— انما اشغلت عنك بك و بمصالح الدولة وارى ان النهاية قد اقتربت

— اية نهاية انت تعني

— نهاية كل شيء بنوالنا الحرية

فنظرت المرأة الى زوجها نظرة من اشفقت ان يكون قد اصيب بعقله لانها لم تصدق مقالهُ فصاح بها

— اعطني تلك الرزمة من المفاتيح

فجاءته بما اراد ففتح الصندوق باحدها واخرج منه ما كان فيه

من المتاع وبسطه على المائدة فنظرت المرأة الى ذلك وصاحت بملء صوتها

— وهل عرفتِ هذا المتاع

— بلى فيا الهي

— وهل تحلفين على صدق معرفتك

— لا ريب في ذلك

— وهل تقدرين ان تعرفي الطفلة ولو كانت قد نمت وصارت فتاة بديعة الحسن رائعة الجمال

— كيف لا اعرفها الان وقد فقدت مني وهي في الثالثة من عمرها

— اذًا اجلسي بجانبي ياحبيبتي وهات لي طعاماً لاني في اشد الحاجة اليه وقولي لي اجاءتك اناتا بكلما تحتاجين اليه

— بلى ولا يعوزني شيء

وبعد ذلك جلس الزوجان يتحدثان بهذا الموضوع المهم عدة ساعات لانه اشد المواضيع لزوما لهما اذ المرأة مسجونة في ذلك المكان بامر من الندوة حتى تظهر الطفلة الضائعة ومع انها لما ظهرت برأة ساحتها تخففت عنها طائلة العرامة فان ولاة الامر لم يفرجوا عن محبسها برًّا بايمانهم السابقة



الفصل الرابع والاربعون

﴿ المحاكمة الثانية ﴾

ان الحكومة المستبدة مهما جارت وتعالت عن المشورة لاتقوى على اسكات الرأي لعام قسراً بل لابد لما في الاحايين من ان تدين لظاهر الاخذ بما يريد تسكيناً لهيجانه وتسكيتاً لمقالاته فالراى العام اذاً اقوى من المستبدين حولاً واشد بطشاً وقد يفعل ما لا تحكم بنيلهِ الافرادولكن

نشر الريح على الماء زرد   ياله درعا منيعا لو جمد

فان المستبدين لا يدركون ذروة جورهم واستبدادهم الا وقد استوثقوا من الراي العام بالموت الزوام ومن الحمية الوطنية بالسبات والا فالامران متناقضان

وكأن بعثة الراي العام في فينيسيا كانت مقدمة انقلاب حكومة الجائرين او هي شعة من اشعة الحرية تشرق حيناً في النفوس ثم تنطفيء بتة لان التحدث بالفظائع وكره الاعتساف وبغضاء المكنونات كان موضوع الناس على اختلاف طبقاتهم من الامير الجالس بين ذوي المكانة والعلياء الى الصعلوك المتمرغ في حمأة الفقر والمسكنة

ومع شدة الخوف من اذان الحكومة ان تسمع ومن عيونها ان تبصر كانت الجدران تنم بما يقال في الخفاء فتنثره بين طبقات الناس لتزيدها امتعاضاً

ولقد عرف الخدم في كل مكان بنشرهم مطويّ احاديث اسيادهم لكن ذلك لم يكن مألوفاً في البندقية لان السر كان من دعائم مجتمعها الاهلي

ولكن الخدم والاتباع من جملة الذين يتألبون فيبحثون في المواضيع العامة اقتداء باسيادهم

وناهيك بان المؤتمرين على الثورة لم يقعدوا عن بث الاخبار بين القوم بذرائع خفية حتى عرف الناس كبيرهم وصغيرهم ان وراء الاكمة ما وراءها وان ذلك اليوم سيكون الحد الفاصل بين العدل والجور فخرج سوادهم الاعظم من بيوتهم عند احتدام الظلام وقد تدججوا بشيء من السلاح فماجت البلدة بهم وعمّت الضوضاء واتجه الجمهور نحو القصر التماس معرفة الحال وكانت الندوة غاصة بالنبلاء مزدحمة بالسراة والاعيان اما الديوان المعروف بمجلس العشرة فكان اعضاؤه في مرتفع مخصوص اقيم لهذه الغاية في احدى زوايا القاعة فاصبح الحضور فيها كأنهم يحضرون مشاهد التمثيل وناهيك مجلس المحاكمة من موضع حفت به مظاهر العظمة والهول اذ كانت على المائدة المنبسطة تجاه القضاة جمجمة مجردة عن اللحم اما الاضواء في القاعة فكانت ضئيلة لا تدل الا على ظلام الظلم واحتجاب نور العدل اما القضاة فلبسوا وفاق عادتهم وجعلوا على رؤوسهم براقع تسترهم عن العيان ولا تظهر الا عيونهم براقة تقدح من ثقوب البرقع شرر الشر والعدوان ووراء هؤلاء الظلمة موقف الشرطة الذين يتولون عندهم الخدمة الجندية وقصارى القول لم يكن ثمة الا كلما يتصوره العقل من اسباب الرعبة والرهبة والهول ليتمكن الظلمة بها من التسلط على الناس وكأني بالنبلاء المتألبين لاستماع المحاكمة قد راعتهم مناظر الهول بعض الشيء فراعوا النظير وسكنوا الى الهمس والوشوشة عوض الافصاح والاجهار بالكلام اما

القضاة فلم ينطقوا ببنت شفة ولكنهم جلسوا كالدمى لا يتحركون ولا يحركون شفاههم وما زال هذا حالهم حتى رن الجرس ونادى الحاجب بوجوب السكوت واذا بباب قد فتح ودخل الدوج منهُ بين الخفراء الساكتين حتى بلغوا به الى كرسيّ مخصوص فلما استقر به بداء رئيس المفتشين اريد به الكونت فالاس يتلو على الحضور بصوت منخفض يملُّ السامع خطاباً مؤداهُ اتهام الدوج بكل ضروب الشر وانواع العدوان وطرق الخبث والغدر وختمهُ بحثهم على القضاء عليه بالموت سريعاً فنهض الدوج واقفاً وخطب في القوم بملء الهدو والسكينة والعظمة والمجد متجهاً في كلامه نحو النبلاء وليس تجاه قضاته وكان مؤدى كلامه الذب عن نفسه بدفاع مملوء من الحقائق تمثل فيه بابهى حلل الفصاحة والبلاغة متنصلاً من الشكوى نابذًا التهمة غير ملوث احدًا بشر الحدثان ثم جلس والسامعون يبدون لهُ علامة الاستحسان منخفضة الصوت لئلا ياخذهم خفراء القضاة الظالمين فارتاع العشرة الاعضاء لهذه الحالة واوجسوا خيفة من ضياع سلطتهم وسقوط نفوذهم فلم يجدوا من سبيل لشد ازرهم ببقائها الا بطريقة واحدة هي ان يبذلوا جهد المستطيع في ايصال الاذية رأساً الى موضع يولم ولذلك نهض زعيم المفتشين وقال ان جواب الدوج واقع في غير محله معددًا اسماء غيره من الدوجات الذين خانوا الدولة والامة فنالوا جزاء خيانتهم عقاباً صارماً وختم قولهُ بالحكم على الامير حكماً يقضي عليه به بالاعدام فورًا في منتصف الليل التالي عند راس الدرج الاكبر

اما الدوج فكان لم يزل رابط الجاش ثابت القدم لم تاخذهُ

الرهبة ولا تولاه الهلع بل نهض مجيبا داعية الخفراء الذين حاطوه به فاخرجوه من الحضرة

ثم دعي الكونت فاركاس وحليلته زليخة

وكان الكونت فالاس وحلفاؤه الجائرون قد عقدوا العزم على استئصال شأفة الممانعة وامحاق اثر المعارضين ولهذا حكموا على الدوج ثم اتجهت انظارهم صوب صديقه الحميم الباسل رئيس الاسطول البحري

ومع ان الكونت وامرأته كانا اسيرين فان القوم احسنوا معاملتهما واستحضروا لهما كرسيين كبيرين ابقاء على مقامهما واظهارًا لخلو غرض القضاة بالنظر اليهما حتى اذا استوى بهما المجلس خاطبهما الكاتب قائلاً — لقد عرفتما ولا شك بالسبب الذي جيء لاجله بكما الى حضرة القضاة

فاجاب الكونت - انا شريف من نبلاء البندقية وزعيم امراء الاسطول فيها ولا اعهد لي ذنباً او جناية يستوجبان حضوري وامرأتي الى هذه المحاكمة

- انك لتعلم السنة البندقية التي تقضي على الشريف بالابتعاد عن رضاء حكومته اذا اتى ما يلوّث شرف نسبه ويهين دولته

- ما ذا ارتكبت مما يمس حكومتي وفخري التليد

- انك اغضبت الحكومة بزواجك من امة لا قدر لها ولا شأن

- ان ذلك كذب فاضح

فاجاب زعيم المفتشين قائلاً - ان المنهاج الذي اتخذته في الجواب على ما يسألك عنه الديوان العظيم لهو مضر بك ومن الواجب عليك

أن تصغي للتهمة الملقاة على عاتق ذلك انه من منذ اربعة عشر سنة اشترى الكونت مالاسبينا بنية يونانية من امها فربى الفتاة كأنها ابنته حين اذ كان عائشاً باسم مستعار في احدى جذر اليونان اما قصده بتربية البنية فمما لا نعلمه ولا يهمنا ان نعرفه ولكن لذي يهمنا من ذلك ان اللص كوزمو اختطف البنية من مربيها فجئت انت وانقذتها من اسره واتيت بها فتاة الى فينيسيا وتبناها الدوج اذ صار اشبيناً رسمياً لها

— وكفى بهذا التبني زريعةً لاطراح سمة الاماء عنها اذا كانت موسومة بها من قبل

— ليس ذلك بالامر المقبول لان الرق يبقى كذلك الى الابد وهاك الاوراق المثبتة هذه الرواية وان هي الا اعتراف امها والطاقة المعلنة وحول ثمنها الى بائعها وحل البيع وتقرير الدول

— ومَن هو الدول يا ترى الا خائن الدولة ومنبوذ الحكومة بل الرجل الذي اوصل الى ذات الدوج اذية لا تقدر ثم فرَّ الى وطنه فصار

— ماذا صار

— صار الضربة الهائلة على البندقية - اجل هو كوزمو اللص المشهور وكانت عبارة فاركاس مخمصة فلما سمعها الحضور اخذتهم الدهشة وشرعوا يهمسون فيما بينهم

فقال القاضي بصوت متهدج استقدموا الدول الى هنا

— واذا بالحاجب يتقدم رجلاً من الملاء لابساً ملابس فاخرة لم

يكن يتباهى بها يومئذٍ من الامراء الا من نال منصة الدول فيمتاز بها عن الاخرين فنظر فركاس وزليخة الى بعضهما وتبادلا النظر واذا زعيم المفتشين يخاطب الكونتة فاركاس قائلاً — انهضي نوقفت زليخه من غير منذر ولا لئام فرل رئيس القضاة الى الدخيل وقال — ايها الدول مالاسينا هل عرفت هذه المرأة — بلى وان هي الا امة يونانية اشتريتها من سوق القسطنطينية وقد سلبنيها كوزمو اللص المشهور من منذ سنتين اذ كنت مسافراً من جنوا الى ليكورن

فصاحت زليخة بصوت جهوري — ويك كذبت فما الدول مالاسينا وكوزمو اللص الجريء الاشخص واحد تاليهِ ان في الامر اتفاقاً دنيئاً وخيانةً للمطن فظيعه

فاجابها زعيم المفتشين قائلاً — ايتها الفتاة انه لا يليق بمن كان في الاعتقال وتحت الدعوى ان يزعج المجلس بمثل هذه الاغراض

- واما انت يا سيدي الدول فهل تقسم على صحة هذه الاوراق

- ثم دفعت الاوراق اليهِ فقال - بلى اقسم بصحتها

- اذا لك ياسيدي ان تذهب بالسلام

ثم تألب العشرة واقتربوا من بعضهم فتذاكروا هنيهة من الزمن واذا في ختامها قد امر الناس بالاصغاء فوقف الكونت فالاس وقال

— ايها الكونت فاركاس لقد ثبتت الجناية عليك وبحسب شريعة فينيسيا تنزل عن رتبتك بين نبلاء ندوة البندقية واشرافها وبعد ذلك تقتل جزاء لفعلتك اما المرأة التي تجاسرت فتخذتها لك امرأة فانها تعاد الى سيدها على ان الشريعة تسمح لنا باعدامها مشاركة لك

في القصاص ولكن النبلاء حلماء وقد اختاروا تركها لرحمة سيدها الذي اشتراها

فلما سمعت زليخة الحكم صاحت — ويحكم اقتلوني ولا تدفعوا بي لذيالك الوغد اللئيم

وما انهت عبارتها حتى تداخل الشرطه بالامر فقيدوا الكونت واخذوا زليخة قسرًا من جهة اخرى بعد اذ تذود كلاهما من بعضهما نظرة ربما حسباها الاخيرة ،

اما الديوان فرأى التشاغل بمصالح اخرى هي تتمة عمله اريد بها انتخاب دوج جديد ليعلن اختياره حالما يتدحرج رأس سلفه من فوق السلم الكبير

وكان جمهور الحاضرين قد اتجه بفكره الى انتخاب الكونت فلاس دوجاً لانه اكثر المرشحين نشاطاً واوفرهم اقداماً ولو لا ان الظروف الحائلة من طرز نسيج وحده لقامت يومئذٍ قيامة المترشحين يبذلون الهبات والرشاوي ويستعطفون الخواطر لادراك المناصة العليا في الدولة ولكن هي الحوادث المريعة التي شغلت الخواطر بها عن سواها كيف لا وان الرجال العشرة الذين يحكمون بالجور قد اراعوا القوم اذ بداء من اعمالهم ما ذاد في سلطانهم وخوفهم ولهذا اجمعت الاكثرية المطلقة على اختيار فالاس دوجاً الا انهُ لم يكن في امكانه تبوا المنصة حتى يموت صاحبها فاراد ان يسرع في ذلك ولكن القتل لا يكون سريع التنفيذ ولا بد فيه من اجراء معداته القانونية التي قضت بها عوائد الامة وسننها المتبعة منذ القديم

ومع ذلك فانه شرع يصدر الاوامر تباعاً كأنه تسنم الامارة وقبض باليمنى على مصالحها

ولقد كان يعلم انهُ لا يأمن على نفسه غائلة جوره ما زال في عدويه المظلومين الدوج والامير فاركاس عرق ينبض فدسَّ العيون والارصاد في كل الشوارع والازقة وزوايا الطرق ومنعطفاتها وتحت الشرفات وبين الناس في نواديهم ومجتمعاتهم ليسمعوا ما به يتحدثون فينقلونه الى ولاة الامر ويشيرون الى الدرك المنبث معهم في اعتقال المذنبين

ولكن سأ فأل اللئام فان الذين استمروا للنهضة بوطنهم من حماة هاتيك المظالم كانوا احكم من ان يأخذوا وارشد من ان تنم بهم اسرارهم قبل ان تنضج اعمالهم ويومئذٍ ويل للمنافقين بما كانوا يعملون

الفصل الخامس والاربعون

❊ زليخة وسليمة ❊

ورأى كوزمو ان غاية غاياته قد تمت لهُ اذ نضي على فاركاس بالقتل وعلى زليخة بالعودة اليه فاصبح لا يحفل بشيء اخر ولا يكترث بما دون ذلك من الغايات

على انه عقد العزم على الزواج بها زواجاً شرعياً غير مرتكب في نوال ذلك الخطأ الذي اودى بزوجها الاول اي انه بذل الجهد في تجنب الاقتران بها كامة يحكم عليها وعلى زوجها بالموت الزوام·

واني يتاتى لهُ ذلك وهو الذي عقد التهمة على رأسها والمرء اذا سعى بنقص ماتمّ من جهة فسعيهُ مردود عليه فنكر في الامر طويلاً وجال في خاطره ان يبوح بسر نسبها العالي غير ان دون ذلك التعريض بنفسه للشكوى منها وقصارى الحديث رأى من السداد ان يتخذ لهُ في الاستدلال على علو نسب الفتاة يدًا اخرى غير يده فيكون ذلك بعد انصرام اجل زوجها وينال منها ما اراد غير ملقٍ بنفسه الى الهتكة

ولما انقضى الديوان وارفض الحشد بالامير فالاس محاطاً بصنوف الابهة وضروب الفخفخة قاصدًا قصرهُ ووراءه جمهور الاتباع والنصراء والمريدين من كل وغدٍ لئيم وشيطان مريد لاشأن لهُ ولا خلاف حتى غص بهم القصر على رحبه اما الدول مالاسيينا فان رجوعه الى وطنه لم يكن مسارًا الا لبضعة من الرجال الذين شاركوه في شقائه وانغمسوا معه في المعصية ومع هذا فانه خرج كزميله من بين الحشد مسرورًا بما نال راغماً زليخة على حياة هي الموت الزؤام او اشد من الموت هولاً على انها كانت متجهة بافكارها صوب زوجها لان الموت اذا اصابه يخلبه فذلك لزواجه بها

ويالله ان فظاعة هذا الجور لما تبعد المرء عن تصديقه غير ان العدالة الالهية اعظم من ان تسمح للشر والعسف بالتمادي فلطالما حكم البشر احكاماً جائرة واشرفوا من طغيانهم على اجرائها لو لا ان حال دون مرادهم منها امر مدبر الكائنات العظيم

ومما يذكر ان الاشقياء قد ينالون اداب نفوسهم وغايات امالهم فيجدون الانقباض حليفهم والكدر اليفهم على غير ما يقضي به لهم الظفر

والنوال وان ذلك الا من داعيات الضمير الحي او من الشقاء الزائد حيث متى ادرك الشقي اربا اتجهت افكاره لمآرب اخر فلا يزال ابد الدهر حليف الهم منقبض الصدر تعذبه الجناية بتصورها وترغبه الامارة بالسوء شقاء آخر

وذلك كان شان كوزمو لانه كان يسر تارة بالظفر وتنقبض نفسه بما يرى دون ادراك الغاية البعيدة من الصعاب سيما وان المرأة التي غصبها على الالتجاء اليه انما سعي بقتل زوجها وهي عاشقة للقتيل فلا يستطيع ان يملك عاطفتها ولا يرى رجاء بتدميث اخلاقها من جهته لانها ستعرف منه العدو اللدود وهبه اجبرها على الزواج فلا يتمكن من امتلاك قلبها المجروح بحب زوجها القتيل

وفوق هذا وذاك فان دون اربه من زليخة سفك دم عزيز يروعه التفكر فيه كلما جال في خاطره لان سليمة كانت مخلصة له وقد سعت في خدمته بملء جهدها فاهراق دمها كفران بمودتها ولكنه لازم لقضاء الوطر

ويا للغرابة ان الرجل الذي اعتاد الشقاء منذ الحداثة والذي سفك الدماء فارسلها مدرارًا غير راحم شباباً ولا متهيب مقاماً ولا عاطف على جنس اصبح في تلك المنيهة معذب الفكرة متضعضع الحواس يرتعد جزعاً من مقتل فتاة كان بالامس يحسب دمها كالماء المهراق

فهل ترى اخذته رعدة الديانة وخشي الله في عباده واتقاه حق تقاته او ظهرت فيه دلائل التغير وبشائر الانقلاب او كان في نفسه

نذير لقرب الوقوع

ومرّ بالازقة مساء فرآها خامدة الانفاس ساكنة الحراك على غير مالوف عادتها ايان تموج بسكانها لوقوع المظالم فاوجس من هذا الهدوء شرًا سيما وانه راى الساحة خالية من الناس كأن القوم نبذوا مصلحة الدوج ظهرياً وجعلوا مصابه نسياً منسياً وعلى مثله لا تسلك هذه الخدعة الاّ انه لم يدر اعلم النبلاء بسر هذا السكون او اسكرهم الظفر فكانوا من الغافلين

وكانت هذه الافكار تجول في خاطره وهو سائر الى قصره وقد عقد النية على امتلاكه تلك الليلة مجهرًا انه هو صاحبه الدوك مالاسبينا غير ان مثل هذا الاجهار لا يتاتى لي حتى تمر به الساعات القليلة الباقية فيكون على بينة من استئمانه على حياته واحتياطاً لما قد يطرأ من الانقلاب اعد سبل الفرار ومهدها بان جعل قاربه في المرسى مهيئاً للفرار به متى وضع رجله فيه

ودخل القصر بمن حمل اليه من اماني نفسه اريد بذلك زليخة وهي في اشد الكدر والانفعال تأثرًا للحكم على زوجها الحبيب حتى كأنها غائبة عن الرشد وهبها كانت في صوابها فان العين باصرة واليد قاصرة على انها لم تكن تخشى من كوزمو ارغامها على الزواج بها لانها كانت معدة مدية صغيرة مخبأة في ثيابها لتطعن به قلبها فتنتحر نجاة بنفسها من الاذى وصيانة لشرفها من العار

وكان الوغد اللئيم قد اعد في قصره عددًا من الخدم والاتباع الذين يثق بامانتهم ويسترسل الي صدقهم فعهد اليهم عند وصوله

الاعداء بالغادة المغصوبة وهي ساعئذٍ كأنها مغشي عليها ومضى الى الحجرة الاخرى مفتشاً على ساينة فلم يجدها فوقع ذلك منه موقعاً مؤثراً سيما لصيرورته الى حالة يخيفه منها اقل حادث غير مالوف فاحتار في الامر وشرع يمعن المكرة في فرارها واسبابه وملجائها وسبل الوصول الى ذلك وكان يعرف منها شدة ولوعها بالكونت فاركاس وتهالكها في حبه وان حدود الامر وتزوجه بسواها لم ينقص من حبها لهُ بل زادها في ذلك ثباتاً وفي كره ضرتها زليخة اقداماً وجرأة فخطر لهُ انها ربما كانت تبذل الوسع في انقاذ الكونت من انياب المنية غير انه راى دون ذلك اعتراض وجود زليخة مما لاترغب فيه ابد الدهر فكأن افكاره حامت بين النقيضين وجمعها ثم عاد ففكرّ انها لا يمكن ان تكون ساعية عن اهلاك الامير بجريرة امرأته نجاةً منها وابتغاء نوال مآرب اخرى في نفسها

وبمثل هذه الخواطر وامثالها جالت افكار اللص فلم يهتد الى الحقيقة ولكنه بسم استخفافاً بالامر وذهب الى فراشهُ ونام الى ضحى اليوم التالي حين اذ وفد عليـــه كثيرون من الزئرين وكان جميعهم من اصحابهِ الذين ائتمروا على خلع الدوج وقتلهِ مسايرةً لاصدقائهم الا ان اهتمامهم بالامر لم يكن كاهتمام فالاس ولهذا ارغبوا في الحيطة والحذر لئلا ينقلب العمل وتعكس الاية ويؤخذون بما عملوا ومع هذا فان تذبذبهم لم يدفع بهم الى الرجوع عن نياتهم خوفاً من طائلة العذار فالاس وناهيك بهم انهم كانوا يعدمون زعيماً يسيرون وراءه

وبعد ان اغربت الشمس بساعة دنا زورق من باب القصر

المؤدي الى الترعة ورسا هنالك وخرج منه الى الشاطئ رجل ان هو الا كوزمو اللص وسار نحو الباحة وقد ازدحمت ساعتئذ بجمهرة النبلاء فمر بهم من غير ان يحيي احداً منهم لان جميعهم كانوا ملثمين وبدأ يخترق صفوفهم حتى بلغ الساحة الكبرى فاذا بها غاصة بجمهور من النـاس يعدون بالالوف وكلهم صامتون الا عن الهمس والصوت الخافت ومع هذا فقد سمع واحداً منهم يقول - لا يمكن ان يكون هذا صحيحاً

فقال اخر — دوجنا النقي النقي الشريف

قال ثالث — الويل والموت للنبلاء المؤتمرين

- من يعلم ماذا يحدث في هذه الليل لان فالاس ليس كما يتخيل آمناً على ذاته وحسبك أن الامة لم تنطق بعد

فاجفل اللص الملثم لهذا القول وبدا يحدس في معناه قائلاً في نفسه ترى اتنهض العامة لاقتضاء حقوقها ان في ذلك لشططاً وما تمالك ان رأى اشارات يدوية وقوماً يدسون في الاذن كلمات سر متفق عليها للتعارف فيما بينهم واذ بقي على اختراق الصفوف رأى الحشد كثيراً متصلاً الى كل المواضع الصالحة للوقوف حتى ساحة سان مارك وهنا لاث ابصر العملة والمحترفين واصحاب المهن والمشتغلين في المسلحة واغرب من هذا ان كل الذين رآهم كانوا مدججين بالسلاح وقد اتجهوا بسيرهم زرافات صامتين لا يتكلمون الا خافتين وامامهم قائد يدير حركاتهم ويدبر شؤونهم فتأمل فيهم قليلاً فتبين لهُ من هيئاتهم ان في نفوسهم شيئاً من المقاصد الخفية وانهم عاقدون العزيمة على بلوغ ما نووا

وكانت تلك الجموع تزداد عددًا كلما ازداد الليل حلكاً واشتد الظلام وكذلك بدات القوارب تمخر الترع ملانة بالقوم المسلحين واعجب من كل هـذا ان بعض الناس تعارفوا على بعض وتراءى الاصدقاء لبعضهم ولكنهم قلَّ ان ابدوا اشارة التحية والوداد

وكأن نسيم تلك الليالي خشي ان ينم باحاديث لا تفاق فشارك القوم بالسكينة والهدو

اما اللص فسار لا يلوي على شيء لكنه اخترق هاتيك الجماهير وصولاً الى فسحة سان مارك لاتمام قصد نواه

وما زال كذلك حتى وقف تحت قناطر القصر متربصاً ناظرًا لما سيكون وهو على احرّ من الجمر بل كانت دقات قلبـه تدل على اضطرابه وهلعه واذا به يسمع صوت النفير ثلاثاً فرنت نغماته الشديدة كانها نذير الخطب فسمعها الناس من اقصى المدينة الى اقصائها فزاد السكوت على اثر هذه النفخات وسد واذا برجل قصير القامة ممتلىء الجسم نشاطاً يقول — ويح نا وة النبلاء فانها ستراع لهول هذا النفير وليت اولئك المؤتمرين ـرًا يعلمون مصير غوايتهم ولكنهم سيلقون البلاء جزءً وفاقاً

فاجابه رجل بجانبه - ويلك اصمت ايها الرجل لئلا يسمعك غير واحد من الزبانية المعروفين بالشرطة فتخسر رجلاً يهمنا امره فيما سيكون من النزال الا تدري ان الوقت لم يحن للاستهزاء بقوة اولئك الابالس وسجونهم الجهنمية

وكان [illegible] المجلس [illegible] السكوت الى السيادة

لان القتل الفظيع والعذاب المريع من الاعمال العادية التي يرتكبها رجال الجور والاعتساف جزاء لاقل الذنوب

فلما سمع اللص ذلك ازداد حيرة وانزهالاً واسقط بيده فسار في طريقه مفكرًا في ما عسى ان تكون هذه الحركة الدالة على شيء من الثورة لعلها يراد بها معاكسة المؤامرة ضد الدوج فاذا كان الامر كذلك فالحذر واجب والحيطة للتملص من الاحبولة ضروري ولذلك تلفع بردائه الكبير وتفقد خنجره وحسامه فرآهما في غمديهما ثم سدد خطواته نحو قصر فالاس الدوج الجديد وكان قد نال منه كلمة السر ليدخل عليه ايان اراد فلما صار الى قاعته تلقاه الحاجب بالترحاب فقال اللص .

— اريد ان ارى سعادة الكونت او بالحري سمو الدوج الجديد

— وكأني بك عارف بكلمة السر

— لا ريب في ذلك

فتلاها اللص على مسمع الحاجب غير ان هذا نفض رأسه ودلت نظراته على غير ما اراد اللص فقال هذا — لي معك كلمة سر . فذهب الحاجب به الى حجرة صغيرة وهنا لك قال كوزمو — ما لي اراك مترددًا في الامر وتأبى ان تؤذن لي بمكالمة سموه

- لان سموه ليس هنا وانما جاءني منذ هنيهة رجل واسمعني كلمة السر التي اسمعتنيها فاد غاته على سيدي وحدثه بشيء ثم سارا سوية الى القصر الاعظم

- لعله دعي الى ندوة النبلاء ولعلك تعلم بوشك وقوع حوادث

مهمة منها ان سيدك تعين دوجاً

- ابى الله ولا سمح الله لان ذلك متعذر الحصول لبقاء الدوج العظيم في قيد الحياة والى عمر طويل ان شاء الله

فادار الدوك مالا سبينا ظهره وقال ستسمع هذه الليلة بما سيكون

— انسمع بمثل هذا كأن سيدي قد خان مولاه ابى الله ان يكون ذلك والوقت يظهر الحقيقة

وما عتم ان خرج اللص من القصر وفي نفسه من الحيرة والاندهاش اضعاف ما كان لان وراء الاكمة ما وراءها ولذلك وطن النفس على البقاء مخفياً حتى يرى ما يكون فيرتد الى جنوا حيث ينال من الغنى والسطوة مقاماً اعلى ويجعل البحر فاصلاً بينهم متنصلاً من كل سمةٍ بندقية وما زال يتحدث بهذه الخواطر حتى عاد الى قصره بين الالوف المزدحمة فاستقدم الجواري وسألهن عن السيدة التي في ضيافتهِ اهي لم تزل سهرانة او التمست المنام فاجبنه انها ابت الارتضاء بطلب الراحة رافضة ما رغبن اليها من مساعدتها على خلع ثيابها لارتياحها الى صرف الليل على الكرسي

فامر اللص الجواري ان يسرعن اليها ويوقظنها تأهباً للسفر على جناح السرعة

ثم اتجه صوب قاعة الطعام فشرب من الخمر كثيرًا واستدعى برئيس الخدم وان هو الا اكبر نصرائه على الشر والعدوان وقال

— اريد السفينة

— انظر ياسيدي اليها

قال ذلك ورفع عن النافذة سجفاً فرآها نا ئرة قلوعها البيضاء تتراآي في ضوء القمر وهي بين تلاعب النسيم تجري مسرعة لكن يؤخرها البحارة عن البلوغ · فقال اللص

— لقد احسنوا اما انت فاعد الزوارق مدججة بالسلاح على ان الضرورة تقضي ببلوغها ظهر المركب قبل نصف الليل وانك على ما اعهد عارف بكلمة المرور لتقولها للبارجة المحافظة

— اجل

وكان ثمة اضطراب وقلق واذا بزليخة قد جاءت الحضرة وعلى وجهها اصفرار الوجل وشارة الكآبة والحزن فقالت

— لماذا ازعجتم راحتي ونفيتم عني رقادي

— ستعلمين ذلك عما قليل فانك ايتها الفتاة تجهلين النار التي تطائين عليها ولا تعلمين درجة الخطر المحيق بك وبنا اجمعين وقد عزمت ان انقذك من ذلك الهول ولو حاطرت بحياتي

— انا لا احفل بالمخاطر ولا احسبها اعظم وقعاً من فراق زوجي

— ان ذلك الفراق امرٌ محتوم واما انت ياجاكومو فهل تهيأت تماماً واعددت الزوارق المسلحة برجالها الكماة

— نعم

— اذا هلموا بنا والوداع يافينيسيا وداعاً لايعقبه لقاء

وما اتم عبارتهُ حتى دخلت سليمة قائلة — تمهل ايها الزوج الصادق فالى اين انت ذاهب سريعاً ومستصحب هذهِ الرفيقة البديعة الجمال

فاجفل اللص منها وارتعدت فرائصهُ لانهُ كان عارفاً باحوالها

ومع ذلك تجلد وقال — ماذا تريدين منا واين كنت كل هذا الليل ثم لا يجب ان يغرب عن بالك ان التي تريد البقاء عندي لا يتيسر لها ذلك الا اذا اقامت على خدمة هذه الغادة

فصاحت به سليمة قائلة - ان تلك الغادة حرة مطلقة الارادة وانت اسير تعاني الذل والهوان

ساعتئذٍ سمعت اصوات الاقدام فاذا بها لرجال الشرطة يتقدمهم بعض الجند من الداسيين فلا رآهم اللص قال

— لقد وقعت الخيانة

— وما رماك الا التي اردت ان تجود بها للمنية من غير ذنبٍ ولقد عرفت سرك وابتليت امرك اذ سمعت ما كان في نيتك من المقاصد فاخذت منك بثاري

فمال اللص اليها وقد بلغت به الحدة الى اقصى غورها ومسك بها واستل خنجره وضربها في كتفها بملء قوته قائلاً

— وهذا انتقامي انا منك

ولكن لم يمضِ عليهِ الا دقائق قليلة حتى احاط به الشرطة من كل جانبٍ فاخذوا منهُ سلاحهُ وكبلوهُ بالحديد وكذا فعلوا بكل اتباعه القرصان الاشقياء

اما سليمة فانها نادت ماسير كراند قائلة هلمّ اليّ فان في صدري من الاخبار شيئاً كثيرًا فاحملني معك بعد اذ تضمد جراحي لئلا تنزف دمائي قبل الكلام

فلما سمع رئيس الشرطة كلامها وان عندها تبليغات مهمة لم يرَ

بدًّا من اجابتها الى مرادها فضمد احد الحاضرين جراحها وسار جميعهم من صوب باب البحر الى الزوارق الواقفة في انتظارهم حيث وجدوا عديدًا من عسكر التفتيش وضباطهم اقيموا هنالك لخفارتهم لان البلدة كانت في اضطراب شديد والخوف ثمة عظيم اما اللص فانه لعن الساعة التي اضاع فيها رشده فلم يسرع بالفرار ومع ذلك لم يقطع الامل من النجاح لان الواقعة لم تكن قد حدثت وكان يحسب ان عدوه اللدود اربد به الدوج قد صار محكوماً عليه بالاعدام وعما قليل ينفذ فيه الحكم و يرتقي السدة خليله وخدنه الكونت فالاس فيعود اللص من جراء ذلك الى حريته وسابق مجده على انه ارتاب قليلاً بصدق وعود فالاس وقال لعله قبض عليه افتتاحاً لحكمه بعمل مهم ثم نفى هذا الظن عن فكره وما زال يردد الافكار حتى انتهوا به الى قصر الدوج فرآه مشعا بالانوار وفيه الحراس والخفراء على الابواب والنوافذ فأخذ الشقي ومرَّ اليه في طريق لا تمر على السلم الكبير بل دخلوا من باب صغير مرَّ بهم في دهليز مظلم لا يخلو من التعارج حتى بلغوا الى الباحة فالسجن

الفصل السادس والاربعون

﴿ القتل على السلم الاكبر ﴾

حكم القضاة الجائرون بقتل الدوج وصديقه الكونت فاركاس واحدًا بعد الآخر بحيث لا تكون الفترة بين مصرعيهما لا دقائق معدودة

وكان يظهر الدوج للناظر اليهِ ساكن الجأش مستسلماً لاحكام القدر كانهُ متعلق باهداب الرجاء ثقته منه بأن الاصدقاء والاعوان وهم جمهرة الامة كلهم من تباع رأيه ورجال حزبه فلا يتركونه حين الحاجة اليهم اما محبسهُ فكان في القاعات الملكية بخلاف الكونت ادريان فانهُ كان محبوساً في سجن ذي غاق حديديّ لكنهُ كان يتخطر فيه كالاسد الموضوع في قفص ولم تكن افكاره الا متجهة صوب امرأته لوقوعها بين يدي عدو لا يخاف الله ولا يهاب انساناً

ودنا الليل فحامت افكاره حول المنية واذ كان تقياً ورعاً متمسكاً بعقائد الكنيسة رأى من الضرورة ان يدعو كاهناً فأجيب ان قبل نصف الليل بساعة يأخذونه الى كنيسة هنالك فيحضر فيها قداساً بصحبة الدوج ثم يجيئها الكاهن فيأخذ اعترافهما فارتضى بهذا الجواب وسكت صابرًا لان العظيم يتصاغر لدى الشدة سيما اذا كان اسيرًا عند قوم لا يرحمون

ومرت الساعات به حتى دقت الساعة الكبرى ما يعادل قبل نصف الليل بساعة فنهض فاركاس واقفاً على قدميه لانهُ عرف باقتراب الاجل وناهيك بها من معرفة تريع الشجاع وتسلب القوى لان المنية اخر اطوار الحياة في الموجود فاذا رأى المرء من نفسهِ بلوغ ذلك الاخر وهو لم يزل راغباً في العيش تنغصّ ونقبض صدره

ومع هذا الانفعال الشديد فان فاركاس تجلد وكظم ما في النفس ودنا من عتبة الدار منتظرًا وفود سجانهِ وما عتم ان جاءهُ اربعة من الحراس وفيهم كاهن فساروا به الى احدى البرابي وهنالك رأى كنيسة

مضاءة بالشموع من كل جانب وفيها رجل اخر يصلي وان هو الا الدوج المظلوم اما اعضاء الندوة النبيلة فكانوا بملابسهم الارجوانيــة واقفين حول الكنيسة وفي احدى زواياها شرزمة من المذبين ونصراء الشر والقاتول بملابسه الحمراء

فما عتم ان بدأ الكهنة بصلوة الموتى فحنى المظلومان رأسيهما خشوعاً لدينهما وليس عن احترام لظلامهما وهما كذلك واذا باضطراب بدأ بين النبلاء فتعاظم ولحق منهم بتباعهم الاشقياء ذلك لان واحداً منهم دخل الحفلة وقال

— الشعب كل الشعب شاغب علينا وعملة المسلحة في مقدمتهم وقد احاطوا بالقصر وهم مدججون بالسلاح

— علينا بان ندحرج لاولئك المشاغبين رأساً فنسكتهم ولكن من لنا بانهاء هذه القراقع

— اليك ايها المولى عن مثل هذا الكلام الذي لو سمعتهُ رجال كنيستنا المقدسة ووعوا ما فيه من اهانتها لابلوك بما لايطاق ثم دخل ضابط من الشرطة وقال — مولاي ان بحارة العمارة شرعوا ينزلون البر ويطلبون امير بوارجهم

وجاء ثالث وقال — ان الشعب في الساحة الكبرى يصيح فليحي الدوج

لاجرم ان هذه الانباء وقعت على رأس فالاس ومحازبيه كالصواعق لانها جاءت لتدلهُ على نهاية امره وحبوط مسعاهُ وان الامة بحذميزها قد نهضت لمواخذته على فعاله ولرد كيدهِ في نحره

والدولة اذا تناهت بالفساد وعبث الظلم بشؤونها وساد الجور على

اعمالها تداعت بجملتها الى الوقوع لان الامم لا تصبر على مضض الحكام فيهم الا اضطرارًا وخضوعاً للسيف المشهر فاذا آنسوا من القابض عليهم ضعفاً ناهضوهُ وكذا كانت جمهورية البندقية غارقة في بحار الظلم والاعتساف لا تجد لها منه مناصاً لان القابضين على ازمتها كانوا يتفننون في ايجاد ما يبقي القوم ساكتين هادئين تحت ربقتهم لا يستطيعون نهوضاً الا ليلقوا عقاباً صارماً

وانما

ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

ما سمع فالاس هذه الانباء الا واعقبها صراخ الاهلين وضوضاؤهم حتى بلغ الى موقفه وذويه فارتاع ولكنه اراد ان يناجيء القوم بفعلة تريعهم فوقف وصاح بجماعته قائلاً — دونكم والقتل اذ علينا ان نعلم الثوار امثولة الطاعة والانقياد وانت ياجنرال كريكوريو اترى ان جندك الدلماسي على تمام الاهبة لانا ربما نحتاج اليه في اطلاق النار على الشاغبين

واذ كان يصدر هاتيك لاوامر ويتباهى بالقوة نهض الدوج من موقفه وصاح به — ويحك ايها الخائن وكذا فعل الكونت ادريان وكل من كان حاضرًا هنالك من الجند والخفراء والكهنة لانهم خلعوا ازياء السكون وظهروا بشارة المؤامرة على الجائرين

فصاح القائد كريكوريو قائلاً — الى سلاحكم ايها الدلماسيون

واذا بادريان قد انبرى لهُ قائلاً — سلمني سيفك وهاك الامر المؤذن بخلعك من القيادة ممضياً من سمو الدوج

— واي دوج انت تعني

— الدوج الوحيد ايها الخائن واني لناصح لك ان تخلد الى الطاعة والامتثال اذا شئت الابقاء على حياتك

وهم كذلك واذا بالكنيسة قد غصت بالناس يتقدمهم روبرت ستانلي حتى اذا صاروا فيها نادى بهم قائلاً — اهتفوا ايها المخلصون تحية لسمو دوجنا العظيم

فادهش المفتشون الثلاثة واسقطوا بايديهم فحاول احدهم فالاس الفرار وكاد ينجو لو لم يعتقلهُ الشاغبون ويجيئوا به و بزميليه مخفورين الى حيث كان الدوج ومن ثم دخلوا البربي الذي كان يتخذهُ الظلام مجلساً لهم يرتكبون فيه الآثام تحت طيّ الخفاء ويسمونها حكومة فطهرها الثائرون اذ خرج منها كل انصار فالاس فرارًا من العدل

ثم قيد فالاس بالحديد وحمل الى مجلس الدوج فقال لهُ —

— اذاً ايها الامير الخطير لقــد حدثتك نفسك الامارة بالسوء ان تلبس البرميز الاميري وتجلس على العرش وانا حيٌ ارزق وان تحكم بالخيانة والاعدام ليخلو لك جوّ الامارة التي اردت ان تختطفها مخضبة بالدم الزكي فهل لك ما تقول في ذلك

— اقول اني حبطت مسعى

— فلتمت قبل ان تمرَّ ساعة اخرى من هذا الليل اما شركاؤك في المظالم فليكن لهم السجن مأوى الى الابد

قال ذلك واشار الى ما وراء جسر التنهدات

فلماسمع رفيقا فالاس بهذا الحكم عرفا القصدمنه وصرخا ارحمنا ايها الامير

— كيف تطلبان الرحمة وانتما لم تعاملا بها ذيالك الانكليزي الباسل حين اذ سجنتماه من غير جناية وجعلتما مقامه في الصيف بين صفائح الرصاص وفي الشتاء تحت الماء

فحنيا رأسيهما امتثالاً واستسلاماً

واذا بماسيركراند قد عاد من المهمة التي انفذه فالاس لقضائها الا وهي القبض على اللص الجريء لان ذيالك الظالم الغادر لم يرض ان يفلت اللص من مخلبه بما فاز به من اغتنام الغادة واذ كان زعيم الشرطة قد قضى اللبانه جاء ليعلن ذلك فراى ما كان ولكنه لم يدهشه الامر لاعتياده على العجائب والغرائب بل تقدم وعالن الدوج بقضائه الامر

فصاح الامير بهِ - هاته الى هنا

فما عتم ان وقف العدوان اللدودان القديمان بعضهما ازاء بعض فرأى الدوج من اسيرهِ وجه الدوك مالاسينا الذي انتحل اللصوصية وزعامة القرصان فلقب بيلاء فينيسيا فحدجه الدوج بنظرهِ طويلاً وتذكر مساويه فامتقع لونه اصفرارًا واضطربت احشاؤُه فيه

وكان الكونت ادريان فاركاس لم يزل في حالة الاسر وتحت الخفارة حتى اذا دخلت امرأته الموضع مالت اليه ووقفت الى جانبه فبسم في وجهها ابتسامة الرضى والارتياح

اما الدوج فاشار الى عدوه وقال — من يشكو هذا الرجل فاجابته سليمة وهي محمولة على نقالة الجرحي - انا اشكو يا مولاي وذلك انه خدعني وكذب عليَّ واراد قتلي وانهُ هو كوزمو اللص

المشهور المعروف قديماً باسم دوك مالاسبينا

فحملق الدوج فيه وقال ويك ايها الخائن اللئيم والوغد الشقيّ يا عدو الامة والوطن نحمد الله تعالى الذي اوقفنا بعضنا تجاه بعض ثانية لتأييد الحق وقضاء الواجب بردع الظلم قل ايها الجسور بايّ شيء تدفع الشكاية عنك

– لاجواب عندي وقد حان لك ان تأخذ مني بثأرك على اني ادركت ثأري منك منذ زمن طويل

– ويحك ايها القاتول اعد عليّ ابنتي فقد اذبت فؤادي عليها اسى عندئذٍ سمعت بعض الضوضاء في الطريق الآخذ من هذه القاعة الى الحبس على طريق جسر التنهدات فالتفت القوم جميعهم ليروا ما كان من سبب الضوضاء واذا بها ان بيانكا داخلة عليهم ووراءها بوناتي وامراته التي كانت سجينة في الحبس منذ سنين فلما وقعت العين على العين ركضت المنكودة الحظ وانطرحت تحت اقدام الدوج ممسكة بيديهِ وصارخة بملء صوتها – ياللعدالة ياللعدالة فارتاع الامير لذلك وانقبضت اسرة وجهه وسحب يديه من يديها ومال الى زوجها الشجاع معنفاً وقائلاً – ابمثل هذا تكافئني يابوناتي اما قلت لك الاّ تريني وجهها حتى تعيد اليّ ابنتي

فنادت به المرأة قائلة – حياك الله ان ابنتك حية ترزق ثم رمت عند قدميّ سيدها كلما كانت الفتاة لابسة من الحلى والحلل ابان اختطفها اللص اللعين فامعن الدوج في ذلك نظره هنيهة من الزمن ثم مال الى من حوله وقال

اعذروني ياأحبائي فان الاحزان والافراح تستولي على القلوب فتشغلها ولو قليلاً عن المصالح العامة و بما ان الكونت ادريان فاركاس معتقل بجناية فظيعة الا وهي تزوجه من امة فاني اريد البحث في الشكاية فان ثبتت عليه فما انا لااقتدر على اعفائه من القصاص فان شئتم افرجوا

فقالت امراة بوناتي ولكن ايها الامير والدوج العظيم والاب الحنون لابد لك من ان تسر بابنتك فعانقها ومن ثم دفعت اليهِ زليخة فادهشه الامر واحتار وقال — اهذه ابنتي

- نعم

ومن ثم شرعت المرأة تقص عليه الخبر وهو انها في الليلة التي فرّ الدوك فيها من غضب الدوج من منذ ثلاثة عشر عاماً رآها حاملة الطفلة على ذراعيها فاختطفها من بين يديها وهي واقفة بها في حديقة القصر وتظاهر بعزمه على طرحها في البحر ولكنه لم يفعل بل اخذها معه الى موضع شقائه ورباها بين القرصان وحرص عليها حرص البخيل على درهمه حتى جاءها فاركاس في احدى غزواتهِ فحملها من عنده غنيمة حرب وعاد بها الى فينيسيا

- ولكن من اين جئت بالثياب والحلى

اجابه بوناتي — هذه جئت بها انا بمساعدة امرأة الدوك وقد كانت موضوعةً في صندوق مخصوص بها في قصر الشقي

فالتفت الدوج نحو مالاسينا ونظر في وجهه فعرف هذا ان الموت نصب عينيه فمال الى الصدق في حديثه فقال - لقد صدقوا فالغادة

ابنتك المختطفة في طفوليتها كما اعرضوا لديك ولاخفاء ان خلاصها من الغرائب . واني لاعترف جهرًا كرجل لم يبق لهُ في الحياة مطمع وكمسيحي (وبئس المسيحي هو) ان هذه ابنة الدوج لامراء فيها

فلما سمعت زليخة ذلك اسرعت نحو ابيها والقت ذاتها بين زراعيه اما هو فكاد يقع مغشياً عليه ولكنه ما عتم ان ثابت اليه نفسه وعاود رشاده فضم ابنتهُ الى صدرهِ وبداء يقبلها ثم مال الى الحاضرين وقال — اعذروني ايها الاحباء وغضوا طرفكم عما بدا لكم من ضعفي لاني شيخ تفانت ايامي وانحطت عزيمتي وقد اصابني الدهر با بنتي فليس بدعاً اذا هزتني لقياها سرورًا وحبورًا فالحمد لله ثم الحمد لله اذ شاءت غايتهُ الصمدانية ان تجبر كسري بارجاع ابنتي اليَّ وتروني الآن وقد فاجأني السرور اطلب الانزواء في الحجر الخاصة

- ولكن مر ايها الدوج النبيل والامير الخطير بما تريد ان نعمل بفالاس لان الجلادين منتظرون امرك

- غير اني لا اراني استطيع ان اقضي الليل في مصالح الدولة فاما السجين فلا بأس من حراسته الى الغد لننظر في شأنه فاقيموا الخفراء عليه واخرجوا على حراسة البلد

وهم كذلك واذا بالشعب ينادي - الدوج الدوج اعز الله اركان اميرنا المحبوب واطال في ايامه انا لراغبون في رؤيتهِ فان منعتموه عنا زلزلنا بكم القصر بل نقضنا جدرانه وصولاً لما نريد فلما سمع فاركاس هذا تقدم من موقفه وقال للدوج اي مولاي تفضل واشرف على انصارك المحبين لانهم ينقدون شوقاً الى رؤيتك وسماع صوتك

فاصاخ الدوج الشيخ لنصيحة صهره واركاس وتوكاه على ذراعه فسارا ووراءهما الخفراء والاصدقاء حتى صعدوا الى قاعة الاستقبال فاجتازوا منها الى الباب الاكبر ففتحوه وظهر الدوج منه متوكئاً على صهريه فاركاس وستانلي فنظر الى الشعب المحتشد وانحني لهُ تكرمةً واعتبارًا فساد فيهم السكوت وقارًا واحتراماً فخاطبهم قائلاً اي اعزائي وابنائي اني لاشكركم على خضوعكم وانكم لتعرفون ان الحكمة تقضي عليَّ ان اصمت عن الافاضة في الشؤون السياسية غير اني اجتزئ بالقول ان فينيسيا قد نجت في هذه الليلة من وبال عظيم

فهتف الجمهور عندئذٍ هتافاً عظيماً صارخين فليحي اميرنا عمرًا طويلاً وشرعوا يذهبون الى بيوتهم مرتضين ما عملوا فائزين بما لا يعرفون من امرهِ شيئاً وكذا شأن الذين تلقى ازمتهم لا يدي غيرهم

الفصل السابع والاربعون

﴿ الختام ﴾

ان القلم ليقف قاصرًا عن بيان ما خامر الدوج من المسرة والحبور برجوع ابنتهِ سالمة ووجودها حية بعد اذ ظنها في عداد الاموات حتى انهُ لما خلا الى ذويه في الغرف الخاصة ابدى من مظاهر الانشراح والارتياح ما طفر به عن رصانة المقام وعزة الامارة الى حنو الاب واشفاقه فكان تارةً يضم الحبيبة الى صدرهِ وطورًا يقبل عنقها فيسفح عليه من دمعهُ ما اشار اليه الشاعر بقوله

هجم السرور عليّ حتى انهُ　　من فرط ما قد سرّني ابكاني

ولقد مرّ بنا من حوادث الرواية الشيء الكبير ونحن الآن موردون السبب الذي لاجله خطفت زليخة طفلة من بين يدي ظئرها فشرب الدوج كأس فراقها علقماً ذلك ان الدون مالاسينا المشهور في وقائع روايتنا كان في بدء امرهِ حدثا مسرفاً في الشهوات مكثرًا من الشقاء متهافتاً على الجرائم وكان ابوهُ صديقاً للدوج ورفيقاً في المواقع الدامية التي شهداها ايام الصبا فاحب الامير ان ينصح للفتى لئــلا تؤاخذهُ الحكومة على اعماله وخبأته فما ارعوى للنصح بل زاده انغماساً في المعصية وعيثاً في البلاد فراى مجلس النبلاء ان يعاقبه جزاء ارتكاباته فوافقهم الدوج على ذلك وان كان في موافقتهِ ما ينال صداقتهُ لابيه غير ان الاخذ بسياسة الحكومة لا يُمنع بالصداقة القديمة . فامر الدوج بحطه عن مقامه الاميري وبسلبه شارات النبالة ونفيه من الوطن مؤبداً فلما صدر الامر عظم خطبه على مالاسينا فعقد النية على الانتقام وكانت بنية الدوج طفلة وعلى خدمتها كثير من الجواري اخصهن امرأة بوناتي فانها كانت تحبها وتلاعبها ففي ذات يوم ركبت بها زورقاً وسارت في الترعة فلما عادت وقد اوشكت الوصول الى القصر رأت ان تميل الى مقام زوجها بوناتي في احد المواضع المجاورة فسارت حتى الحديقة ومنها انتهت الى دهليز يسار منه الى الساحة وهي هنالك رأت رجلاً ملتفاً برداء كبير وعلى وجهه لثام وقد هرول عند رؤيتها حتى صار على مقربة منها فاختطف البنية واسرع في الذهاب فوقعت المرأة مغشياً عليها سيما لانها سمعت صوت شيء وقع في الماء فحسبت ان الشقيّ الخاطف حمل الطفلة

ورماها في الماء وكذا احكت الرواية بعـد ان استفاقت فكانت ثمة الحكاية الشائعة فلما سمع الدوج ما كان قام وقعد واقسم الايمان المغاظة ان المرأة لاتخرج من السجن حتي تعود الابنة اليـه فللحال سجنت المرأة لكنه ما عتم ان مضى زمن المصاب واخلقت جدة التأثر فرأى الدوج ان ذنب المرأة لم يكن امرًا كبيرًا وانما الذنب كل الذنب على الشقي الخاطف

ولكن الايمان المغاظة لم تكن مما يستخف بها سيما اذا صدرت من حاكم مطاق فراى ان يلطف سجنها بان يوذن لزوجها بوناتي ان يساكنها في محبسها بحيث يقيم عندها ما شاء ويخرج من المحبس غير معارض اما هي فتظل ترشف بقيودها في سجنها لاتخرج منه ابد الدهر

اما زوجها فكان من تباع الدوج المخلصين ومن رجاله المقربين اليه وقد انتحل حرفة الشجاع تستيرًا لمهنته وهي تجسس الاخبار للدوج واستطلاع خفايا المكنونات في بلدته المشهورة باسرارها

ومع ان القوم كانوا عارفين بخفايا امر الدون مالاسينا وفعلته تقديرًا لم يكن بينهم من حسب لبقاء زليخة في الحياة حسابًا على ان باعترافه كشف الغطاء عن جنايته فحل كثيرًا من المسائل المشكلة وكان مدعاة لتسريح بعض المعتقلين

وكان المجتمعون في قاعة الدوج عند خروجه اليها كل من ابنتيه زليخة وبيانكا وصهريه فاركاس وستانلي وكذلك كان بوناتي وزوجته فلما خمدت سورة الدهشة الاولى وسكنت ضوضاء القوم الى الارتياح قال الدوج لبيانكا — اما الآن فانك ايتها البنية المحبوبة قادرة

على ان نقضي واجب رغدك وسعادتك

- ان ذلك متعذر يا ابت

- ولم انت في يأس وكدر

- لاني امرأة الكونت فالاس وحكاية الواقع ان الشقيّ توعدني بقتلك اذا ابيت اجابتهُ الى الزواج ووعدني بانقاذك من مخالب المنية اذا رغبت فيه ففضلت الاجابة على الرفض ابقاءً على حياتك الغالية ولو تعبت كل ايامي وبالحال استحضر الكهنة وعقد زواجهُ عليّ متماً كل شرائط العقد الكنسي فنحن الآن زوجان بحكم صلوة العقد وكان من رغبتهِ ان يأخذني الى قصره ولكني ابيت ذلك حتى يكون الزواج علناً اما الآن فاحمد الله على اقتداري ان لا اساكنهُ

وكان روبرت ستانلي يسمع ذلك ويحسبه كالصاعقة انقضت على رأسه فرآهُ الدوج واشفق من الامساك عن تطمينها فقال ابى الله ان تساكنيه لان خبرك هذا كاف في الحكم عليه بالموت اما فاركاس فقال — ان ذلك العقد لم يكن الا كالخطبة العادية ليس الا فهو اذاً سهل الانفساخ

والحق ما قال فاركاس لان سمو الدوج استدعى من اباء الكنيسة وروسائها اجتماعاً فلما عقدوه وتبينوا ما جرى فيه حكموا بوجوب فسخ العقد لانه تمّ عن غير رضى بل بالاجبار والوعيد ثم رفعوا بحكمهم خبرًا لقداسة الحبر الاعظم فصدق على مؤداه وبذلك كله فسخت صلوة الاكليل بين فاركاس وبيانكا واصبحت كأن لم تكن

فسر القوم بهذا النجاح غير انهم ظلوا يتحدثون فيما يعملون بالرجلين

اللذين بلبلا البلدة وزادا في الشقاء اريد بهما فالاس ومالاسيننا غير ان الظروف قد تساعد على حل الاشكال من غير انتظار

ذلك ان الذين شاركوا الشقيين في المؤآمرة رأوا انهما ربما اعترفا بجناياتهما فاوردا من الجملة اسماء الذين شاركوهما في الائتمار على خلع الدوج وقتله فهلعت نفوسهم ولم يروا الا قتلهما ستراً لاحاديثهما

الاان مسعى هؤلاء ايضاً لم يظهر الى الوجود لان القدر اتاح للشقيين ان يهربا بوسائل غير معروفة من محبسهما

اما سلبية فكانت ساكنة لا تبدي حراكاً لانها استسلمت لحكم القدر عارفة استحالة صيرورتها امرأة لماركاس · ولكنها لما عرفت بفرار رجلها خافت وارتاحت واصبحت كانها ذات سر تصونه عن الناس حتى اصبحوا ذات يوم فلم يجدوها ولم يعثروا لها في فينيسيا على اثر

ومما علم انه لما عرض على فالاس ان ينجو من السجن لم يرغب في مشاركة احد بفراره اي انه ابى ان ينجو مع اللص كأنه اراد ان يهرب من الموضع الذي طالما زج فيه كثيرين حتى استخدمه لمآرب الوغد كوزمو ولكن تغير الحال حتى اصبح لا يريده شريكاً في النجاة· فشعر كوزمو منهُ بذلك فاتخذ الخدعة سبيلاً وقال اعلم ايها الكونت انك صديقي واذا سهلت لي الفرار معك احبوك مالاً طائلاً نعيش به في بحبوحة الغنى والسعادة بعيدين عن هذه الديار وشرع يسهب له في التفصيل حتى انطلى الامر على فالاس وارتضى بمصاحبته في هربه· وفي نفسه ان يعود الى الوطن ذات يوم فيستطيع الانتقام من

اعدائه بذراع من حديد

وعلم الشقيان عند فرارهما من السجن ان البقاء في فينيسيا ضرب المحال لان الشرطة لهما بالمرصاد سيما وقد تحول المحال وصار ماسيركراند ضدهما ووراءه بوناقي يرصد الحركات والسكنات

فامدهما رجالهما بالمال وسهلوا لهما سبل الفرار الى جنوا فاقاما فيها حيناً من الدهر ثم قال اللص للكونت ان كنزه الاعظم موجود في احدى الجزائر اليونانية حيث يوجد مغار يعرفه كل رجال العصابة اما الموضع الذي استودع فيه مزدخر السنين الطوال فهو خفي عن جميعهم ولا يعرفه الاه حذراً من سرقة ما فيه من الذهب والفضة والجواهر الثمينة وانه اذا تيسر لهما امتلاك مركب صغير يسيران به الى مقصدهما

ولكنهما صرفا بعد ذلك نحواً من شهر وهما يتنعمان بالملاذ حتى برز مركبهما معروفاً بالسرعة موصوفاً بحسن البناء والمتانة وكان من قبل مختصاً باحد الانكليز المتوفين هنالك مصاباً بالحمى وكانت عدة نوتية المركب اثنى عشر رجلاً وكلهم من نخبة الرحال الذين يترددون على الحانات لان الموكلين بتدبيرهم لم يختاروا منهم الاّ الشبان الاقوياء النشيطين الذين يمتثلون اوامر زعيمهم غير معارضين ولما تمّ الاكتتاب لبسوا كلهم على الزيّ التركيّ الا الطباخ والقهرمان فانهما بقيا على لباس الايطاليان

واقلع المركب المذكور بالرجلين اللذين فيه غير انه لم يسر بهما الى الجزيرة المقصودة توّا لئلا يكون في قصدها على هذه الصورة ما يبعث على سوء الظن بهما ولكنهما شرعا يجوبان البحر حتى كانهما لما

تلك الجزيرة عرضاً وفيها هيكل يوناني قديم وعلى مقربة منهُ غابة من الاشجار الباسقة فلما نظر الزعيمان الى الجزيرة اظهرا ارتياحهما الى البقاء فيها يوماً او يومين ترويحاً للنفس من العناء وكان الجو هادئاً والبحر رهواً والحر شديداً وحجر المركب محكمة المغالق لا يستطاع فيها تنفس الهواء البارد ولهذا وقع امرهما من البحارة موقعاً حسناً لانهم مالوا الى ترويح النفس بعد العناء اياماً فنزلوا البر وضربوا لربانهم خيمة بين خرائب الجزيرة وساروا يفتشون لهم عن موضع فيها يأوون اليــه ولما خيم الليل وراى الصديقان ان رجالهما قداستسلموا للرقاد خرجا من مضربهما وكانا قبل نزولهما الى البر قد قربا المركب من الشاطىء حتى صارا بحيث يستطيعان حمل ما يجدان من النفائس في الكنز اليه من غير ان يشعر بهما وبما يعملان طائفة السفينة

فلما خرجا من مضربهما سار اللص وفي اثره فالاس يخترقان عباب الغاب ويطئان النبات الغض القائم فيه حتى انتهيا الى غار ضيق الفوهة وكانا قد اصطحبا فنداً من الشمع فدخلا من المضيق الى غار كبير جمعت فيه كل لوازم اللصوص حتى المائدة اذ كانت في احدى الزوايا وهنالك موضع اخر فيه عدة من البراميل

قال فالاس الى صديقه قائلاً — وهل ان الكنز فيها

— بل هي ملأى بالبارود

ثم اجتازا الموضع الى حفرة اخرى في اخرها ماءٌ صاف كالبلور وبارد كالثلج ووراءهُ ظلام لايهتدي اليه فتمسك اللص بجوانب الصخر واجتاز الماء من الجانب المذكور فلحق الكونت به الى مغارة صغيرة كأنها في اخر

بالغار وهنالك اطلّ فلاس من بابها فرأى ما ادهشه اذ كانت ملأى بحلى الكنائس ومتاعها النفيس و بكثير من الجواهر والحجار الثمينة والنقدين الكريمين الذهب والفضة سبائك ونقوداً وكلها مركومة بعضها فوق بعض ركاماً فلم يتمهل الصديقان ولا قضيا في الفكرة وقتاً بل اشار فلاس ان تحمل كلها دفعة واحدة وتباع ثم يشترى بها عقار واملاك فاجابهُ اللص الى ذلك و باشر واياه المهمة فجمعا ذلك الكنز الثمين الى كيسين كبيرين ولم يمض عليها الا وقت قصير حتى بلغا بحمليهما الى المركب واوشكا ينجوان به لو لم يدفع بهما طمعهما الاشعبي الى استحضار كيس كبير كانا قد ملآه من المتاع الفضي لكن عظم عليهما حملهُ فجراهُ الى باب المغار ومن ثم جلسا ياخذان الراحة ليعاودا الحمل فما عتم ان دوى الفضاء بصوت ارتجت لهُ مفاصلهما اذ قال — ويحكما يارجلي الدماء و باغائصين في لجة الذنوب والاثام لقد حان حينكما

فنظر الرجلان الى مصدر الصوت واذا عند المدخل شبح بصورة احد بحارة المركب فتبيناه واذا به ذات سليمة وقد اسفرت عن وجهها النقاب وقربت من وجهها مصباحاً انارتهُ لتظهر لهما حتى اذا رآها اللص صاح بها — ويك ايتها الامة الشقية

فقهقهت الفتاة ضحكاً ولكنها لم تجب بل القت المصباح من يدها الى داخل الغار واخذت تركض فالتفت اللص الى رفيقه وقال — الحق بي نجاةً بنفسك من الهلكة

غير ان النار علقت بما كان مذروراً هنالك من البارود فالتهب ودوى المكان لهُ فكان لحداً للشقيين اللذين خنقهما بخار الانفجار

اما سليمة فعادت الى موضعها ونظرت الى مصيرهما ومضت الى البحارة فاخبرتهم بصرع الزعيمين صدفة مظهرةً لهم الكيس المملوء من الفضة فحملوهُ واقتسموهُ بينهم على انها كتمت خبر الكنز الذي حمل الى المركب ولم تنبئهم بما فعلت

ومضت الايام وكرت السنون وفي جوار جنوا سيدة ذات ثروة طائلة على ان الناس كانوا يقولون انها عاشت بتولاً ولما قضت تركت تلك الاموال والذخائر للكنيسة وخدامها

اما حوادث فينيسيا فكانت على احسن حال ذلك ان روبرت ستالي ما عتم ان نال اماني نفسه بزواجه من ييانكا بنت الدوج فاقام واياها في المدينة على رغد عيش ونعيم ورزقا البنين الصالحين وكان من نسلها بضعة من رجال السياسة والجندية مقيمين هنالك حتى دالت حكومة الجمهورية فهاجروا

اما الكونت فاركاس فنال منصة الدون مالاسبينا ولما قضى حموه اختاروهُ دوجاً فحكم بالعدل والانصاف وكان بوناتي من اخص المقربين لديه واهم رجاله

وقصارى القول في مؤدى هذه الرواية انها اظهرت للقارئ اللبيب حالة البندقية في عصورها الزاهية وايام استبداد رجالها وكيف ان الجور اذا لابس قوماً سلبهم حتى الامن على انفسهم واعراضهم واموالهم وان المسودين ولو استناموا للجنف والقسوة ونفضوا رؤوسهم للقتل وخافوا من اتصال الاذية اليهم فانهم لن يبرحوا للمستبدين بالمرصاد يتوقعون قيام زعيم يجمعهم على النهضة فيلبون النداء ويأخذون بناصره

فيدكون بناء الظلم دكاً . ولا تقوى حصون الظالمين على ردعهم

وكذا تبين من سياق الحديث اعلاء شأن الاخلاق الطيبة والخصال الحميدة كالعفة والامانة والصدق والصداقة وانها متى لازمت امرءًا رفعت به الى يفاع المجد وذروة الشرف بخلاف الدناءة والخسة والشقاء والنفاق والكذب وخيانة الدولة والوطن والرشوى والبغضاء والظلم والجور وسفك الدماء وانتهاك المحرمات ولعب الميسر وادمان الخمرة فانها كلها من الشرور السافلة التي تحط بالانسان الى دركات الهوان بل قد تفضي به الى تجرع كأس المنية تخلصاً من الحياة او عقاباً عن الجريمة

وحبذا مثل هذه الرواية تحث على الفضيلة واتباعها وتكشف خبايا الرذيلة وتفضحها ونحن احوج الى اتباع اداب النفس منا الى تعليم العلم السامي فعسى ان تكثر امثال هذا الكلام في سياق الهزل فان ذلك اوقع في النفس

ونسأله تعالى ان ينفع بها وبامثالها انه السميع المجيب



✵ مؤلفات جرجي زيدان ✵

منشيء الهلال

(١) « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الأيام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه ماية رسم واربع خارطات ثمنهُ ٤٠ غرشا صاغاً واجرة البوسطة ٥ غروش

(٢) « تاريخ الماسونية العام » من اول نشأتها الى هذه الايام ثمنهُ ٢٠ غرشاً واجرة البوسطة غرشان

(٣) « التاريخ العام » الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر ثمنهُ ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(٤) « الفلسفة اللغوية » فيها بحث تحليلي عن الفاظ اللغة العربية ثمنها ١٠ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٥) « جغرافية مصر » (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمنها وحدها ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(٦) « اسير المتمهدي » رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان

(٧) « المملوك الشارد » (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور لهُ محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٨) « استبداد المماليك » رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٩) « جهاد المحبين » رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش [illegible] غرش ونصف

(١٠) « رد ربان » على انتقاد تاريخ مصر [illegible]

(١١) « السنة الاولى من الهلال » مجلدة تجليداً [illegible] ٥٦ غرشاً واجرة البوسطة ٥ غروش صاغ

(١٢) « السنة الثانية من الهلال » مجلدة تجليداً [illegible] غرشاً واجرة البوسطة ٥ غروش

(١٣) « ملخص تاريخ اوربا » (تحت الطبع)

روايات الهلال

(١) « استراتوكي » (تأليف صموئيل افندي يني) وهي [illegible] روايات الهلال غرامية تاريخية حصلت حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المكدوني ثمنها خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٢) (لصوص فيبيا) هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . الجزء الاول ثمنهُ خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

تطلب هذه الكتب من ادارة الهلال في القاهرة ومن وكلاء الهلال في الجهات ومن ارسل قيمتها مع اجرة البريد ولو طوابع بوسطة ترسل اليهِ حالاً